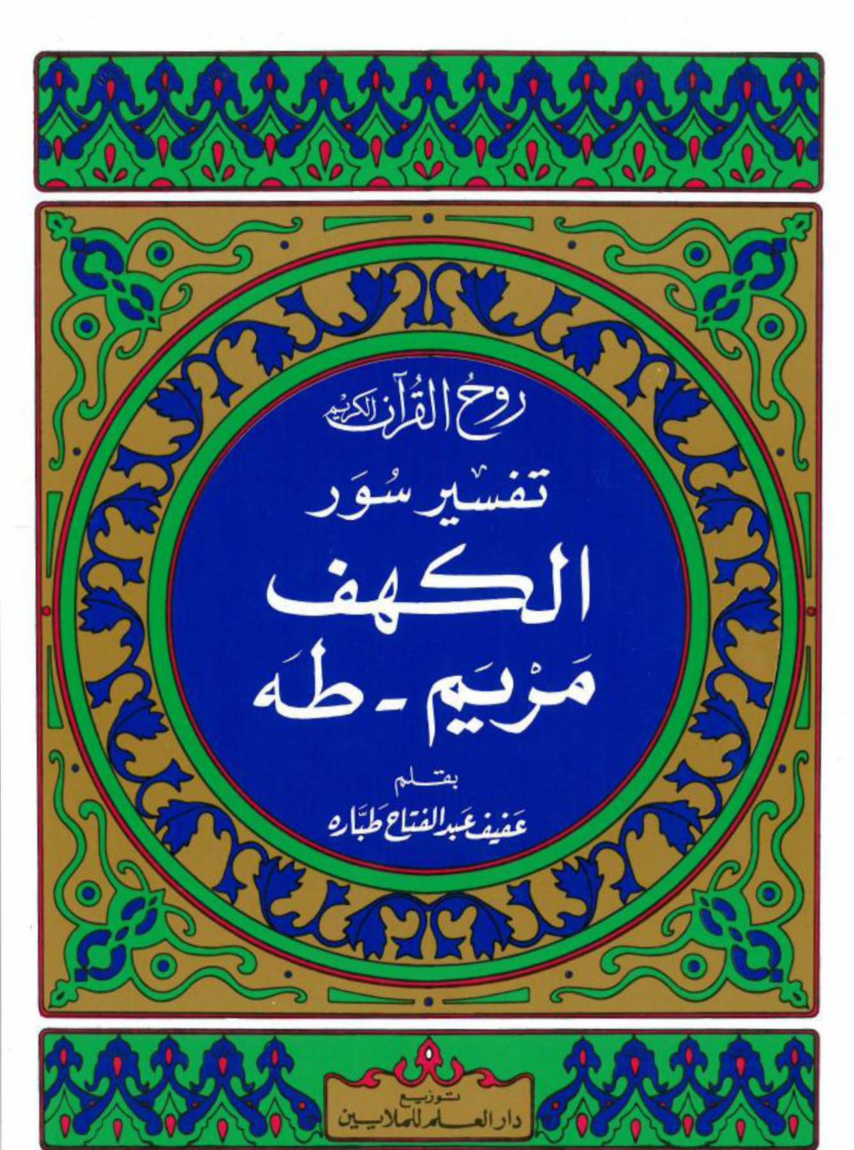

روح القرآن الكريم
تفسير سور
الكهف
مريم - طه
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

قال محمد رسول الله ﷺ:

إنَّ أفضلكم من تعلّم القرآنَ وعَلّمه

روح القرآن الكريم

تفسير سور

الكهف - مريم - طه

الجزء السادس عشر وقسم من الجزء الخامس عشر

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

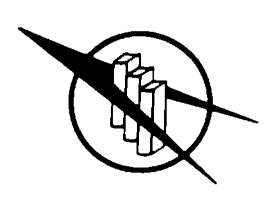
شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف : ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com



٣ ٤ ٥ ١٥ ١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مَدْخَل

عزيزي القارىء

ها أنا أضع بين يديك تفسير ثلاث سُوَرٍ من القرآن الكريم وهي: الكهف، ومريم، وطه؛ هذه السُوَر الثلاث تشهد بأن القرآن الكريم هو وحي إلَهي ليس من كلام البشر، كما تشهد بذلك جميع سُوَرِ القرآن.

ومن الغريب أن أتباع الأديان الأخرى لا يعترفون بأن محمداً رسول الله، وبأن القرآن وحي إلهي، ويزعمون أن القرآن من تأليف محمد. إن هذا الاعتقاد قائم على الجهل، وعلى معلومات مغلوطة تلقوها من صغرهم، ورسخت في عقولهم، وذلك على أيدي أساتذتهم وآبائهم ورجال دينهم. وإني أرى أنه لزاماً عليّ دحض هذا الاعتقاد الخاطىء بالدليل القاطع، والبرهان الجليّ في هذه الصفحات القليلة لعلَّ الذين لديهم طاقة من العقل والفهم يرجعون إلى عقولهم، ويفكرون تفكيراً هادئاً مجرداً من التعصب الأعمى ليصلوا إلى الحقيقة المجردة.

إن افتراض أن القرآن من تأليف محمد يستتبع أن محمداً مفترٍ ومدعي النبوة كذباً وهذا مما يخالف الواقع، فقد كان معروفاً بالصدق في قومه قبل أن يعلن نبوته وهو في الأربعين من عمره، وكان يلقب بالصادق الأمين، «وما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[1].

والدلائل على صدق نبوة محمد كثيرة لا مجال هنا للإسهاب فيها، وها أنا في هذه

---

(١) هذا ما قاله هرقل إمبراطور الروم لأبي سفيان، الذي كان حينذاك من خصوم محمد ﷺ. وكان قد استدعاه إلى قصره حين كان في تجارة له في الشام، فسأله عن محمد وأحواله جملة أسئلة، منها: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول إنه نبي؟» فأجابه أبو سفيان: «ما جرّبنا عليه كذباً»، فكان أن قال هرقل: «إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله» راجع صحيح البخاري ـ باب الوحي.

الصفحات القليلة أعرض الحقائق الآتية التي تشهد أن القرآن وحي إلّهي وأن محمداً رسول الله حقًّا.

١ ـ ما احتواه القرآن من الأخبار عن قصص الأنبياء كقصة آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وسليمان وداود وعيسى ابن مريم وغيرهم من الأنبياء، وهي قصص تطول وتقصر في سُورٍ شتى بأساليب منوعة ذُكِرَ بعضها في التوراة، وبعضها في الإنجيل وبعضها لم يذكر أصلاً فيهما، وذلك مغايرٌ لمنهجهما في العرض، لأنه يتوخى في سرد هذه القصص العبرة والموعظة. كما أن القرآن أجاب عن الأسئلة التي وجهها لمحمد بعض العرب المنكرون لنبوّته بما تحدوه به من خبر أهل الكهف وحال ذي القرنين، فأجابهم محمد بالخبر اليقين عنهم بما أوحى الله إليه، وأكثر قصص الأنبياء إن لم نقل جميعها نزلت على النبي بمكة حيث لم يكن هناك وجود لليهود والنصارى، ولم يكن فيها علماء ليتلقى العلم عنهم، كما أن هذه القصص كانت خافية على العرب ولم تكن متداولة على ألسنتهم.

٢ ـ ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الدعوة إلى وحدانية الله، وتنزيهه جل وعلا عن صفات السوء والنقصان، والدعوة إلى طاعته، وبيان منهاج عبادته من صلاة وصيام وحج، وما دعا إليه من الإيمان بالبعث والحساب والجزاء يوم القيامة، بالإضافة إلى ما فيه من إرشاد إلى الحلال والحرام وإلى محاسن الأخلاق، والزجر عن مساوئها، وهي نفس الأهداف التي جاءت بها الأديان السابقة، بالإضافة إلى ما يحويه من الحِكَمِ البالغة والتشريعات في الأسرة والمجتمع والعلاقات بين الأفراد والأمم، وهذه كلها لم تجر العادة بأن تصدر جميعها من أميّ، فقد كان محمد لا يقرأ ولا يكتب حتى باعتراف خصومه. هذا مع العلم أن البيئة التي نشأ فيها محمد لم يكن فيها مدارس ولا جامعات، ولا نهضة علمية، كما كانت عليه بعض الأمم السابقة.

٣ ـ أسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب العرب، ومناهج شعرها ونثرها، فأسلوب القرآن يتسم بدقة التصوير واستخدام التشبيه والاستعارة مع الإيجاز، كما يتميز بذلك الجمال الصوتي الناشىء من تخيّر الألفاظ العذبة، وتآلف حروفها في النغم، والبعد عن الغريب والوحشي من الكلام، واطراد الفاصلة في آياته على نسق خاص يؤلف مجموعها لحناً جميلاً مطرباً يجذب السامع إلى ما فيها من روعة وقوة بيان.

والمراد بالفاصلة التي ذكرناها الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية، وموقعها في الآية

يشبه موقع القافية في البيت الشعري، وهي ترد في الآيات القرآنية حاملة دفعتين وهدفين في آن واحد: دفعة من النغم الجميل، وأخرى متممة لمعاني الآية، بحيث لو أزيلت الفاصلة الموضوعة في آخر الآية أو استبدلت بكلمة مرادفة لها لاختل المعنى واضطرب السياق.

ولو أمعنّا النظر في فواصل القرآن وتأملنا أكثر الحروف الأبجدية التي تنتهي بها لوجدناها الحروف الآتية: النون والميم والألف والواو والياء، وهذه الأحرف جميعها تحمل لحناً إيقاعيًا، ونغماً له وقعه في الأذن. كما أن فواصل القرآن تنتهي أواخرها بأحرف أخرى تضفي جمال النغم وقوته على الآية.

ونتأمل سورة الكهف فنرى فواصلها كلها تنتهي بالألف الممدودة مثل: حسناً، أبداً، عجباً، أمداً، رعباً، أحداً، الخ. . باستثناء فاصلة واحدة انتهت بالألف المقصورة وهي: هدى.

وتأمل أيها القارىء سورة مريم فترى السلاسة في فواصلها في المواضع التي تستدعي التفكير الهادىء والعبرة المؤثرة مثل الفواصل الآتية: سويًّا، تقيًّا، زكيًّا، سريًّا، جنيًّا، إنسيًّا، شقيًّا الخ. . .

أما إذا جاءت الفاصلة في موطن إنذار ووصف عذاب، أو إنكار لمعتقدات باطلة فتأتي على حرف الدال أو الزاي المشدد المنتهي بالألف مثل: مدًّا، ضِدًّا، عزًّا، أزًّا، لُدًّا.

أما سورة طٰه فترى فواصلها تنتهي بالألف المقصورة أو الألف الممدودة مثل: العلى، استوى، الثرى، أخفى، ذكراً، جِملاً، زرقاً، عشراً، الخ. . . فالفاصلة هي مفتاح وزن القرآن وجمال نظمه.

ولقد تحدى الله الناس جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن بقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يأتُون بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. [الإسراء: ٨٨] وها قد مضى على هذا التحدي خمسة عشر قرناً ولم يظهر أي أديب عربي أو غير عربي أتى بمثل هذا القرآن فصاحة وبلاغة ومعنى وتشريعاً، أي حجة أقوى من ذلك تثبت أن القرآن وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقًّا.

٤ ـ ما تلمس في آياته من جلال العظمة الإلهية والرهبة الربانية البعيدة عن الصبغة

الإنسانية، فمن البديهي أن الكلام ينبيء عن شخصية المتكلم، كما أنه من الصعب أن يتجرد الكاتب من طبيعته البشرية ثم يجعل نفسه إلَهاً يتكلم عن نفسه بصفة الألوهية، وهذا ما لم يعهد في أساليب الكلام قديماً وحديثاً، ولنعط مثالاً على ذلك ما جاء في سورة طه حيث يخاطب الله موسى:

﴿إنَّني أنَا اللهُ لا إلَه إلاَّ أنَا فَاعْبُدْني وَأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكري. إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أكادُ أُخْفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا واتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [الآيات: ١٤ ـ ١٦].

ومثالاً آخر من سورة مريم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم والشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُم حَوْلَ جَهَنَّم جِثِيًّا. ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أيُّهُم أشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا. ثُمَّ لَنَحْنُ أعْلَمُ بالَّذِين هُمْ أوْلى بِهَا صِلِيًّا. وَإن مِنْكُم إلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ [الآيات: ٦٨ ـ ٧١].

٥ ـ إذا تمعّنا في كلام محمد الموجه إلى قومه آمراً وناهياً وواعظاً ومتعبِّداً، والمدون في الكتب الآتية: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، ومسند الإمام أحمد، وغيرها من كتب الأحاديث الشريفة، وقارنّاه بكلام القرآن نراه يختلف اختلافاً كليًّا عنه في أسلوبه وطبيعته، فكلام النبيّ محمد ﷺ ترى فيه الصبغة الإنسانية بكافة مشاعرها، وضعفها ولجوئها إلى الله في كافة أحوالها، بينما في القرآن نرى فيه الصبغة الإلهية وما تتصف به من القدرة والعزة والحكمة والسلطة الشاملة على المخلوقات والعلم المحيط بالكون. فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدعي البعض لما صحّت دعواهم بحال، لأنه من المتعذر على الكاتب والأديب أن يكون له أسلوبان ومنهجان في بيانه وتفكيره.

هذه بعض الدلائل على أن القرآن وحي إلهي أضعها أمام المرتابين في نبوّة محمد ﷺ عسى أن يعيدوا النظر في معتقداتهم الخاطئة ويكتشفوا ذلك بأنفسهم بالتأمل والدراسة المجردة في القرآن الكريم. وصدق الله إذ قال مخاطباً رسوله محمداً: ﴿قُلْ يَا أيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنِ اهْتَدَى فَإنَّما يَهْتدي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أنَا عَلَيْكُم بِوَكيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

تعريف بسورة الكهف

تضمنت سورة الكهف ثلاث قصص توجيهية، ومثلين من صميم الحياة، مع مواضيع أخرى سيأتي بيانها في محلها.

القصة الأولى: هي قصة أهل الكهف التي تتحدث عن فتية من النصارى آمنوا بربهم وهجروا ما عليه قومهم من الشرك بالله وعبادة الأصنام، فاتفقوا فيما بينهم على الفرار بدينهم من اضطهاد مليكهم وملاحقته لهم، واللجوء إلى كهف يعبدون الله فيه مُؤْثِرينَ ذلك على كل مُتَعِ الحياة الدنيا، فأنامهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، ثم أيقظهم من نومهم على أحسن ما يكونون صحة، وأطلع الله الناس على أمرهم، ليكون حالهم هذا آية على حدوث البعث يوم القيامة، وأمثولة في التضحية في سبيل الثبات على دين الله.

القصة الثانية: هي قصة نبي الله موسى عليه السلام مع خادمه، وما جرى له مع الخضر عليه السلام، فهي قصة رحلة في طلب العلم وتحمّل المشقات في سبيله، ودرس في آداب طالب العلم مع أستاذه. وأن علم الإنسان محدود، وأن وراء الأحداث التي يعايشها جملة من الحِكَم والأسرار، عَلَّم الله بعضها من يشاء من خلقه، ومنهم الخضر عليه السلام.

القصة الثالثة: هي قصة ذي القرنين وقد مكّنه الله في الأرض فبسط نفوذه فيها، وآتاه من كل شيء بما يتوصل به إلى مبتغاه، فَضَرَب على أيدي المفسدين الذين يعيثون في الأرض فساداً، ومنهم يأجوج ومأجوج، فبنى ذو القرنين سداً

يحول بينهم وبين تعذّيهم على جيرانهم، وفي هذا درس للأمم القوية للضرب على أيدي المفسدين، ورفع الظلم عن الأمم المقهورة المغلوبة على أمرها.

أما المثلان فهما:

أولاً ـ هو حال رجلين: أحدهما غنيّ اغْتَرَّ بثروته، وكفر بِنِعَمِ الله عليه، وأنكر البعث، والثاني كان فقيراً مؤمناً بربه، مدركاً لطبيعة الحياة الدنيا التي لا تدوم لأحد. وقد تطاول الغنيّ على صاحبه الفقير، وافتخر بما أنعم الله عليه من المال، فحذره الفقير من مآل كفره وبطره فما ارعوى وما اتعظ، فكان أن أرسل الله على بستانه جائحة سماوية قضت على كل ما أنفق على بستانه. وفي هذا درس يقدمه القرآن لمن يتمادى في كفره، ويتكبر على المستضعفين من عباد الله.

ثانياً ـ بيان أن الحياة الدنيا في نضرتها وبهائها، وسرعة زوالها، شبيهة بماء أنزله الله من السماء، فأنبت به صنوف النبات، ثم لا يلبث هذا النبات أن يجفّ ويتكسر، وتفرقه الرياح في الجو مبددة إياه. وهذا توجيه للناس بعدم الاطمئنان إلى هذه الدنيا والركون إليها.

كما تحذر السورة من طاعة إبليس. وتنذر بالعذاب الأليم الذين يدّعون أن لله ولداً. كما تدعو المؤمنين إلى معاشرة الأخيار وعدم طاعة أهل الهوى والشهوات المعرضين عن ذكر الله لسوء مغبة ذلك.

وأخيراً تبين السورة ما أعد الله للمؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال ما سينالون من نعيم في الآخرة، وما أعدّ الله للكافرين من عذاب أليم.



سورة الكهف

مكية ، وآياتها ١١٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

شرح المفردات

لم يجعل له عوجاً: لم يجعل الله فيه تناقضاً واختلافاً في معانيه وألفاظه.

قيماً: مستقيماً.

لينذر بأساً شديداً من لدنه: ليخوف الله بعذاب شديد من عنده.

أجراً حسناً: أجراً عظيماً يوم القيامة وهو الجنة.

ماكثين فيه أبداً: باقين في الجنة مخلدين.

كبُرَت كلمة: عَظُمَ إثم الكلمة التي قالوها بأن لله ولداً.

باخع نفسك: قاتل نفسك ومهلكها حزناً.

على آثارهم: من بعد توليهم عن الإيمان.

أسفاً: حسرة وحزناً عليهم (لحرصك على إيمانهم).

لنبلوهم: لنختبرهم.

صعيداً: وجه الأرض.

جُرُزاً: يابسة لا نبات فيها.

إنذار للذين يدّعون أن لله ولداً

تبتدىء هذه السورة بالثناء والشكر على الله لإنزاله القرآن الكريم على محمد ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ﴾ الحمد لله: هو الشكر لله والثناء عليه. والحمد أعم من الشكر لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح. وإدخال الألف واللام الحصرية على ـ حمد ـ فأصبح (الحمد لله) هو اعتراف بأن الله هو مصدر كل نعمة وإحسان في الوجود. و (الحمد لله) في الآية جاء على نعمة إنزاله الكتاب، والمراد بالكتاب: القرآن الذي أنزله الله سبحانه على عبده محمد ﷺ. ووصف محمد بالعبودية لله هو لإغلاق الباب على من يأتي بعده من الأمم، فلا يجعلونه ابناً لله كما جرى لغيره من الأنبياء.

والقرآن أعظم نعمة من الله على الناس تستوجب الشكر له سبحانه، لأنه أخرج الملايين منهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَـهُ عِوَجاً﴾ ولم يجعل الله في القرآن اختلافاً ولا تناقضاً ولا خللاً في ألفاظه ومعانيه، ولم يخرج منه شيء عن دائرة الحكمة.

﴿قَيِّماً لِيُنْـذِرَ بَـأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْـهُ﴾ وهذا القرآن جعله الله مستقيماً معتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط. ويأتي قيّماً بمعنى: مهيمناً على مصالح الناس وعلى سائر الكتب الدينية. كما أن هذا القرآن يحذّر الكافرين ويخوفهم من عذاب شديد من عند الله سبحانه ﴿وَيُبَـشِّرَ[1] المؤمنين الَّذِينَ يَـعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أنَّ لَـهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ أي ويبشر المصدقين بوحدانية الله وبرسوله محمد الذين يعملون صالح الأعمال التي أمرهم الله بها بأن ثوابهم في الآخرة هو الجنة ﴿ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ خالدين في الجنة إلى الأبد لا ينتقلون عنها.

---

(١) التبشير إخبار عما سيأتي من أمور سارة، كما أن الإنذار إخبار فيه تخويف.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِين قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ ويخوف الله الذين قالوا إن لله ولداً من عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة.

والذين نسبوا ولداً لله هم بعض اليهود حيث قالوا: عُزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وبعض العرب الذين ادعوا أن الملائكة بنات الله.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ولا لآبائهم﴾ نفى الله عن الحاضرين من هؤلاء والأقدمين من أسلافهم الذين ادعوا أن لله ولداً أن يكون لهم به شيء من العلم اليقيني في ذلك ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخرجُ مِنْ أفواههم إن يقولونَ إلاَّ كَذِباً﴾ أي عظمت تلك الكلمة التي يلفظونها بأن لله ولداً، فما هذا القول إلاّ مجرد كلام كاذب لا حقيقة له أصلاً.

﴿فَلَعَلَّك بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثارهم إنْ لَمْ يؤمنوا بهَذَا الحديثِ أَسَفاً﴾ فلعلك يا محمد مهلك نفسك أسىً وحزناً على قومك من بعد توليهم عنك وإعراضهم عما جئت به من القرآن. ولفظ (لعلَّ) جاء هنا في موضع النهي والإنكار، أي لا تهلك نفسك أسفاً وحسرة عليهم، بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه.

﴿إنَّا جَعَلْنا مَا عَلى الأَرْضِ زينةً لَها﴾ أي إننا جعلنا ما على الأرض من زخارفها ومفاتنها زينة لها ومنفعة لأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُم أيُّهُم أحْسَنُ عَمَلاً﴾ لنعاملهم معاملة المختبِر لهم ونمتحنهم بالخير والشر ليظهر منهم الأصلح عملاً ﴿وَإنَّا لَجاعِلُون مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ وإنا لجاعلون ما على الأرض من الزينة ـ عند انتهاء عمرها ـ خراباً ودماراً، فتصبح الأرض حينئذ مستوية لا نبات فيها ولا عمران.

هذه العبرة مما تؤول إليه الدنيا يضعها الله أمام أنظارنا حتى لا نغترّ بها، فنعيم الدنيا إلى زوال، وعمر الإنسان على هذه الأرض يمتد لفترة قصيرة، ثم يعقبه حساب ومجازاة على أعماله يوم القيامة.

قصة أهل الكهف

أسباب نزول قصة أهل الكهف

روي أن قبيلة قريش أرسلت إلى اليهود أفراداً منها ليسألوها عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فقال اليهود: سلوه عن فتية (أي أهل الكهف) ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب. وسلوه عن رجل طوّاف (أي ذي القرنين) بَـلَغَ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح (أي الروح الإنسانية)؛ فإن أخبركم بذلك فهو نبي، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل (أي مدّع للنبوة). ثم جاءوا إلى رسول الله وسألوه عن هذه الأمور، فقال رسول الله: «أخبركم بما سألتم غداً» ولم يستثن (أي لم يقل إن شاء الله) فانصرفوا. وأبطأ نزول الوحي عليه خمسة عشر يوماً فأحزنه ذلك، وكذّبته قريش، ثم جاءه الملك جبريل من عند الله بنبأ أصحاب الكهف، وخبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطواف، وخبر الروح التي جاء ذكرها في سورة أخرى.

وقبل أن نعرض آيات القرآن التي ذكرت قصة أصحاب الكهف نذكر ملخصاً مما جاء في كتب التفسير عنهم:

أهل الكهف

كان أهل مدينة أفسوس[١] يتبعون دين عيسى عليه السلام، ثم إن ملكاً جباراً يقال له دقينوس ظهر على مدائن الروم ومنها أفسوس فأمر أهلها بعبادة الأصنام، واشتد في اضطهاده حتى كان يقتل كل من يخالفه، ويعلق جثته على سور المدينة.

ولكن سبعة فتية من أشراف الروم عز عليهم ترك دين عيسى فأخذوا يعبدون

---

(١) أفسوس: وقيل أفسس، وهي مدينة قديمة العهد قائمة على بحر إيجيه أحد متفرعات البحر الأبيض المتوسط.

الله سرًّا، فعلم أمرهم هذا الملك الطاغية، فاستحضرهم إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه، فرفضوا وقالوا له: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً أبداً، ولن نقرّ بهذا الذي تدعونا إليه فاصنع بنا ما بدا لك. فلما سمع دقينوس منهم ذلك نزع عنهم ثياباً كانت عليهم من ثياب عظمائهم ثم قال: أما إذا فعلتم ذلك فإني سأؤخّر إيقاع العقوبة بكم، وما يمنعني أن أعجل لكم إلاّ أني أراكم فتياناً لم تنضج عقولكم، وإني أمهلكم وقتاً تفكرون فيه. ثم أُخرجوا من عنده، وذهب دقينوس إلى مدينة أخرى.

فلما رأى الفتية دقينوس قد خرج من مدينتهم، خافوا إذا رجع إلى المدينة أن ينفذ ما هددهم به، فتشاوروا، وقرّ رأيهم على أن يهربوا من المدينة ويلتجئوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له بنجلوس ويمكثوا فيه يعبدون الله وحده.

وصلوا إلى الكهف ثم اضطجعوا قليلاً ليأخذوا قسطاً من الراحة فألقى الله النوم عليهم.

افتقدهم دقينوس بعد أيام فلم يجدهم. وبعد التحري عنهم علم أنهم فروا منه إلى كهف في جبل بنجلوس، فقال دقينوس: دعوا هؤلاء الفتية الذين تركوا آلهتي يموتون في الكهف عطشاً وجوعاً. وأمر أن يسد عليهم باب الكهف بالحجارة فلا يستطيعون الخروج منه أبداً.

ثم إن رجلين مؤمنين كانا في بيت الملك دقينوس يكتمان إيمانهما اتفقا على أن يكتبا قصة الفتية أصحاب الكهف وأسماءهم وأسماء آبائهم على لوحين من الرصاص، ثم يصنعا تابوتاً من نحاس ويجعلا اللوحين فيه ثم يضعاه على باب الكهف لعل قوماً مؤمنين يظهرون على هؤلاء الفتية فيعلمون بخبرهم.

وبعد ثلاثماية وتسع سنين والفتية نيام في الكهف بأمر الله حدث أنّ راعياً أدركه المطر عند الكهف فقال: لو فتحتُ هذا الكهف وأدخلت غنمي فوقيتها من

المطر. فاستأجر عاملين فنزعا تلك الحجارة وفتحا باب الكهف ولم يدخلاه. وأيقظ الله الفتية من نومهم في الغد حين أصبحوا وهم لا يكادون يمسكون أنفسهم من الجوع، وقال واحد منهم: يخيّل إليّ أنّا رقدنا ساعات طويلة فما تظنون يا رفاق؟ فقالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. ثم أرسلوا رفيقهم يمليخا إلى المدينة مصحوباً بالنقود الفضية التي معهم ليحضر لهم طعاماً، وأوصوه بالحذر حتى لا يعرفه أحد، وإلاّ انكشف أمرهم وقبض عليهم.

ذهب يمليخا إلى المدينة متنكراً بكساء، فظهر له أن المدينة ليست بالمدينة التي كان يعرف، ورأى أناساً كثيرين يذكرون عيسى فقال في نفسه: لم يكن في هذه المدينة من يذكر عيسى إلاّ قتل، واليوم أسمعهم يذكرونه! لعلَّ هذه ليست المدينة التي أعرف! فجعل يمشي ويعجب بينه وبين نفسه ويخيل إليه أنه في حلم. ثم إن يمليخا دنا من أحد الذين يبيعون الطعام، وأخرج النقود التي كانت معه وأعطاه إياها وقال: بعني بهذه النقود طعاماً، فأخذها الرجل فنظر إلى نقشها فعجب منها، وطرحها إلى رجل آخر من أصحابه فنظر إليها. ثم جعلوا يتداولونها بينهم ويقول بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد وجد كنزاً في الأرض، ثم قالوا له: من أنت يا فتى وما شأنك؟ والله لقد وجدتَ كنزاً من كنوز الأولين فأرنا إياه وشاركنا فيه، فإن لم تفعل نأت بك إلى الملك فنسلمك إليه. فلما سمع قولهم عجب في نفسه وقال: لقد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه.

وخاف خوفاً شديداً حتى انعقد لسانه ولم يستطع الكلام، فلما رأوه لا يتكلم ساقوه إلى رئيسي المدينة اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان أحدهما يسمى أريوس، واسم الآخر أسطيوس، فلما مَثُلَ يمليخا بين أيديهما سألاه: أين الكنز الذي وجدت فيه هذه النقود، إنها تشهد عليك أنك وجدت كنزاً، فقال يمليخا: ما وجدت كنزاً؟ ولكن هذه النقود هي نقود آبائي، ثم سألاه: فمن أبوك ومن يعرفك بهذه المدينة؟ فأنبأهم باسم أبيه، فلم يجدوا أحداً يعرفه. . . فقال له أحدهما: أنت

رجل كذاب لا تنبئنا بالحق وإني سآمر بك فتعذَّب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدت. فأجاب يمليخا: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عما عندي: أرأيتم دقينوس الملك الذي كان في هذه المدينة عشية أمس ما فعل؟ فقال له الرجل: ليس على وجه الأرض رجل اسمه دقينوس، ولم يكن إلاّ ملك قد هلك منذ زمان ودهر طويل. فأخبرهم يمليخا قصته وقصة رفاقه حيث فروا من طغيان مليكهم دقينوس الذي أكرههم على عبادة الأوثان فلجأوا إلى الكهف حيث ناموا فيه، فلما استيقظوا وشعروا بالجوع خرج ليشتري لهم طعاماً. ثم طلب يمليخا منهم الانطلاق معه إلى الكهف ليريهم أصحابه.

فلما سمع أريوس ما يقول يمليخا قال لمن حوله: يا قوم لعلَّ هذه آية من آيات الله جعلها لكم على يدي هذا الفتى، فلنطلق معه يُرنا أصحابه. ولما وصلوا إلى الكهف قال يمليخا دعوني حتى أتقدمكم لأعلم أصحابي. فدخل عليهم وهو يبكي، فسألوه عن شأنه فأخبرهم خبره، وقص عليهم النبأ كله، فأدركوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمان كله، وإنما أيقظهم الله من نومهم ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث. ثم دخل على أثر يمليخا أريوس ومعه جمع من الناس فرأوا تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم من فضة، ففتحوا التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص وفيهما أسماء هؤلاء الفتية، وأنهم هربوا من ملكهم دقينوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم، وأنهم دخلوا هذا الكهف. فلما سمع الجمع ذلك حمدوا الله الذي أراهم آية للبعث، ورفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه وتمجيده، ثم دخلوا على الفتية في الكهف فوجدوهم جلوساً مشرقة وجوههم، فخرّ أريوس وأصحابه سجوداً لله وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته.

ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا رسلاً إلى ملكهم الصالح تيذوسيس: أن عجّل بالمجيء لعلّك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها على هؤلاء الفتية، فلما بلغ الملك تيذوسيس الخبر أسرع بالمجيء ومعه أهل المدينة حتى أتوا إلى الكهف، فلما رأى

الفتية الملك تيذوسيس فرحوا به وخرّوا سجّداً لله على وجوههم. وقام تيذوسيس قدامهم وعانقهم وبكى. ثم قال الفتية لتيذوسيس: إنا نودعك، والسلام عليك ورحمة الله، حفظك الله وحفظ ملكك، ونعيذك بالله من شر الجن والإنس.

فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا، وتوفى الله أنفسهم بأمره، وحجبهم الله حين خرج القوم من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم، وأمر الملك فجعل على كهفهم أو على بابه مسجداً يصلى فيه، وجعل لهم عيداً عظيماً، وأمر أن يؤتى كل سنة.

* * *

والقرآن ذكر قصة أهل الكهف بالاقتصار على مختارات من وقائعها الهامة التي فيها العظة والإرشاد على لسان أبطالها بدون تسميتهم ومن غير أن يبسط القول بذكر أحداثها مرتبة مستوفاة الأطراف كما نراها في القصص المعهودة.

وإليكم ما جاء في صددها:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾

شرح المفردات

أم حسبت: بل أظننت.
الكهف: المغارة الواسعة المجوفة في الجبل.
الرقيم: اللوح المكتوب فيه شأنهم.
أوى الفتية إلى الكهف: التجأوا إليه محافظة على دينهم.
وهيىء لنا من أمرنا رشداً: ويسّر لنا الاهتداء إلى طريق الحق.
فضربنا على آذانهم: عطّلنا حاسة السمع عندهم وأنمناهم.
بعثناهم: أيقظناهم من نومهم.
وربطنا على قلوبهم: قوّينا قلوبهم وألهمناهم الصبر.
شططاً: قولاً مفرطاً في الظلم والكفر.
لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن: هلاّ يأتون على صحة عبادتهم للأصنام بحجة واضحة.
فمن أظلم: لا أحد أظلم.

إيمان الفتية بربهم

يستهل الله الكلام على أصحاب الكهف بقوله:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ أي أظننت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من العلامات الدالة على قدرة الله التي تثير العجب وحدها دون سواها، فلا تحسبن ذلك ففي صفحات الكون من العجائب الدالة على قدرة الله ما يفوق قصة أصحاب الكهف.

وقد سمى الله هؤلاء الفتية أصحاب الكهف لأنهم لجأوا إلى كهف[1] في الجبل وسماهم بأصحاب الرقيم لأن أمرهم وشأنهم قد رُقِّم وكُتِبَ كما تُكتب الآثار والغرائب على ألواح من نحاس أو رصاص.

---

(١) ليس هناك دليل ثابت على مكان وجود الكهف الذي تحدث عنه القرآن على الرغم من أن هناك العديد من البلدان في الشرق والغرب تدعي وجود هذا الكهف في أراضيها.

﴿إِذْ أَوى الفِتْيَـةُ إِلَى الكَهْفِ﴾ واذكر يا محمد حين لجأ هؤلاء الفتية إلى الكهف فراراً من ملكهم الظالم لئلا يفتنهم عن دينهم، وقالوا حين دخلوا الكهف: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَـا آتِنَـا مِنْ لَدُنْـكَ رَحْمَةً وهيِّىء لَـنَـا مِنْ أَمْرِنَـا رَشَداً﴾ هذا الدعاء على اختصاره يجمع كل نواحي الخير التي ينشدها الإنسان، أحدها: أن يشملهم الله برحمة من عنده، وهي عنايته بهم ورعايته لهم وتوفيقهم إلى طاعته. والأمر الثاني: أن يؤتيهم الله الرشد وهو نقيض الضلال والغيّ، ومن خصه الله برحمته وهداه إلى مسالك الخير فاز بالمطلوب، ويجمل بكل مؤمن أن يدعو ربه بهذا الدعاء عند كل أمر عسير، وعند كل ضيق لا يجد له مخرجاً منه.

وقد أجاب الله دعاء هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف فنشر عليهم رحمته بإلقاء النوم عليهم، وجنبهم عذاب العزلة، ومقاساة الوحشة، وهيأ لهم في الوقت نفسه من أمرهم رشداً، إذ نجاهم من الكفر وحال بينهم وبين الفتك بهم وتعذيبهم على يد مليكهم الظالم، وأعلى ذكرهم على مر السنين.

﴿فَضَرَبْـنَـا عَلَى آذانِـهِمْ في الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ أي ضرب الله على آذانهم حجاباً يمنع عنهم حاسة السمع أن تؤدي دورها سنين عديدة، والضرب على الآذان كناية عن النوم الثقيل، حيث أنامهم الله فلم يوقظهم صوت.

فالذي لا ينام في الحواس هو السمع، لأن الإنسان حين يغمض عينيه لا يرى ما حوله ولكنه لا يستطيع أن يصم أذنيه لأن الأذن تؤدي وظيفتها دائماً سواء أراد الإنسان أم لم يُرِد، وإذ أراد الله أن يجعل أهل الكهف يستغرقون في سباتهم العميق سنين عديدة دون أن يشعروا بما حولهم فقد منع عنهم حاسة السمع ﴿ثُمَّ بَعَثْـنَـاهُمْ﴾ أي ثمَّ أيقظهم الله من نومهم، ولمّا كان النوم شبيهاً بالموت عبّر الله عن ذلك بالبعث. ولفظ البعث جرى التعبير به عن إحياء الله الموتى يوم القيامة ﴿لِنَعْلَمَ أيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثوا أمداً﴾ أي لإظهار ما تعلق به علم الله أزلاً وبيان أيٌّ من الحزبين أدق إحصاء للمدة التي مكثها الفتية في الكهف.

والحزب الأول: هم الفتية إذ ظنوا أنهم لبثوا في الكهف يوماً أو بعض يوم، والحزب الثاني: أهل المدينة الذين بُعِث الفتية من الكهف على عهدهم، وعندهم تاريخ أمر الفتية فظهر لهم في ذلك آية من آيات الله.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالحَقِّ﴾ نحن نخبرك خبر هؤلاء الفتية على وجه الحق الذي لا يعتريه زيغ ولا بطلان ﴿إنَّهم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدْنَاهُم هُدًى﴾ إنهم شبان آمنوا بربهم الواحد الذي لا شريك له، وزادهم الله يقيناً وتثبيتاً في إيمانهم.

في هذه الآية ثناء على الشباب الذين آمنوا بربهم والتزموا طاعته فهم دعامة الأمة وركنها المتين. وما انتقلت أمة من مواطن الضعف والتخلف إلى مصاف الأمم الراقية إلاّ بأيدي شبانها الصلحاء، وهذا ما يحدونا إلى الاعتناء والسهر على الشبان وتنشئتهم على الفضيلة والخلق القويم، وتثبيت الإيمان في قلوبهم لأن مستقبل الأمة وازدهارها يقومان على سواعدهم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إذْ قَامُوا﴾ فالله سبحانه يقول: وقوينا عزائمهم وثبّتناهم على عقيدتهم وصبّرناهم على مخالفة قومهم حتى تركوا ما كانوا عليه من العيش الرغيد، وقالوا حين قاموا بين يدي مليكهم الطاغي معلنين إيمانهم بجرأة: ﴿فَقَالوا: ربُّنَا رَبُّ السَّمٰوات والأَرْضِ﴾ استدلوا على وحدانية الله بالدليل الفطري الذي خلق الله الناس عليه، ولم تفسد طبيعتهم التعاليم الفاسدة من عبادة الأصنام، ثم قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إلَهاً﴾ لن: تفيد استمرار النفي إلى الأبد، أي إذا كان الله هو رب السماوات والأرض فلن يأتي وقت نعبد فيه غيره ﴿لَقَدْ قُلْنَا إذاً شَطَطاً﴾ أي إذا عبدنا غيره نكون قد بعدنا عن الحق والصواب وقلنا قولاً باطلاً وكذباً.

ثم يذكر القرآن حديث الفتية بعضهم لبعضهم الآخر: ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي إن قومنا اتخذوا من غير الله آلهة يعبدونها وتركوا عبادة الله

المستحق وحده للعبادة ﴿لَوْلاَ يأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي هلاّ يأتي هؤلاء بحجة ظاهرة على ألوهية من يعبدونهم من غير الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أشد ظلماً ممّن اختلق على الله كذباً بأن نسب له شريكاً أو ادعى الألوهية لغيره.

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

شرح المفردات

اعتزلتموهم: تجنبتموهم.

فأووا إلى الكهف: فالتجأوا إليه.

ينشر لكم ربكم من رحمته: يبسط ويوسع عليكم من رحمته.

مِرْفقاً: ما تنتفعون به.

تزاوَرُ: تميل.

تقْرِضُهُم: تتركهم وتتجاوز عنهم.

في فجوة منه: في متسع من الكهف ووسطه.

بالوصيد: بفناء الكهف أو عتبة بابه.

لولّيت منهم فراراً: لأعرضت عنهم وهربت منهم مسرعاً.

لجوء الفتية إلى الكهف

ثم يبين القرآن فرار الفتية من مليكهم وقومهم ولجوءهم إلى كهف يختبئون فيه: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أي وقال الفتية بعضهم لبعض: ما دمتم قد فارقتم قومكم وتجنبتم ما يعبدون من الآلهة سوى الله ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُم رَبُّكُم مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي فالتجئوا إلى الكهف[١] فراراً بدينكم واستخفاء منهم يبسط لكم ويوسع عليكم ربكم من رحمته في الدنيا والآخرة ﴿وَيُهَيِّئ لَكُم مِنْ أَمْرِكُم مِرْفَقاً﴾ ويهيىء لكم ما تنتفعون به مما تحتاجون إليه من طعام وغيره.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِم ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ هنا كلام فيه حذف دل عليه ما تقدم، والتقدير: فالتجأوا إلى الكهف، فألقى الله عليهم النوم. فكانت الشمس في وقت طلوعها تميل وتنحرف عن كهفهم ناحية يمين الكهف ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي وفي وقت غروب الشمس تتجاوزهم وتتعداهم إلى ناحية شمال الكهف أي أنهم غير معرّضين مباشرة لأشعة الشمس ويكون أغلب الأشعة إلى جانبي الكهف فتخفف من رطوبته وتعدّل من هوائه، وهذا يعني أن باب الكهف كان مفتوحاً إلى جهة الشمال[٢] ﴿وَهُم فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ وهم في متسع من الكهف ووسطه

---

(١) هؤلاء الفتية اعتزلوا قومهم وهربوا بدينهم من طغيان مليكهم إلى الكهف، والجدير بكل منا عند شيوع الكفر والفساد وانتشار الفواحش والمنكرات أن يعتزل القوم الفاسدين، ولكن ليس من المفروض أن نذهب إلى الكهوف في الجبال بل إن كهف المؤمن هو عالمه الخاص الذي التزمه وآمن به، وهو عقيدته بالإيمان بربه واتباع شريعته وعدم مجاراة القوم المفسدين في أفعالهم والبعد عنهم. أما عند استفحال الفتن والخوف على النفس والأهل من الانجرار في المعاصي فالهجرة من تلك البلدان أسلم لمن يستطيع ذلك. وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شَعَفَ (أي رؤوس) الجبال ومواقع القطر (أي الماء) يفرّ بدينه من الفتن» أخرجه البخاري.

(٢) أخبر الله أن الشمس تدخل عليهم في الكهف صباحاً ومساءً وهذا يعني أن باب الكهف كان مفتوحاً. ولو كان باب الكهف قد سُدَّ عليهم كما رُوي سابقاً فلا تصل الشمس إليهم. في هذه الحالة هناك رأيان في نظري، الرأي الأول أن يكون في أعلى الكهف فجوة يدخل منها نور =

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ذلك الحفظ الذي حفظهم الله في ذلك الغار تلك المدة الطويلة وهم أحياء هو من آيات الله الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ من يوفقه الله للإيمان بوحدانيته ويرشده إلى طريق الهدى والحق فهو المهتدي حقاً ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً﴾ ومن يضلله الله لسوء عمله وظلمه فلن تجد له حليفاً وناصراً يرشده إلى الخير والصلاح.

﴿وَتَحْسَبُهم أيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وتظنهم أيها الناظر إليهم يقظين غير نيام والحال أنهم نيام ﴿وَنُقَلِّبُهم ذَاتَ اليمينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ في هذا القول قاعدة من قواعد الصحة للرقاد الطويل، فالأطباء يوصون المريض أو أهل المريض الذي يضطره المرض للرقاد وقتاً طويلاً أن يتقلب يميناً ويساراً فترة بعد فترة حتى لا يصاب جسمه بالقروح، أو يحدث له انسدادات في الدورة الدموية في القسم الأسفل من الجسم، فقبل أن يكتشف العلم هذه الحقيقة بين لنا القرآن أن هؤلاء الفتية قد جرى تقليبهم يميناً ويساراً محافظة على حياتهم[1].

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي وكان كلبهم الذي تبعهم باسطاً ذراعيه بساحة الكهف أو ببابه، وهو على مثل حالهم في النوم، وهو في رأي العين منتبه ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِم لَوَلَّيْتَ مِنْهُم فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُم رُعْباً﴾ أي لو شاهدتهم على حالتهم التي كانوا عليها من الهيبة التي أسبغها الله عليهم لفررت مبتعداً عنهم لما ملأ صدرك من الخوف والرعب من مرآهم.

= الشمس، فالفجوة تأتي في اللغة أيضاً بمعنى الفرجة والمتسع بين الشيئين، والرأي الآخر أن باب الكهف لم يُسَدَّ عليهم، فهناك رواية تقول: إنهم بعد أن ذهبوا إلى الكهف وأنامهم الله فيه افتقدهم أهلهم وقومهم فبعثوا رجالاً منهم يبحثون عنهم، فأعمى الله عنهم الأبصار فلم يطلع عليهم أحد، فلما لم يقدروا على العثور عليهم كتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح ووضعوه في خزانة الملك.

(١) باختصار عن كتاب (معجزة القرآن) ـ للشيخ محمد متولي الشعراوي. دار العودة، بيروت.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

شرح المفردات

بعثناهم: أيقظناهم من نومهم.

بورقكم: الوَرِق نقود من الفضة.

أزكى: أجود.

يظهروا عليكم: يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم.

يرجموكم: يقتلوكم رمياً بالحجارة.

ملتهم: دينهم.

أعثرنا عليهم: أطلعنا الناس عليهم.

وأن الساعة لا ريب فيها: وأن القيامة آتية لا شك فيها.

إذ يتنازعون بينهم أمرهم: إذ يختلف القوم في أمر الفتية بعد موتهم.

قال الذين غلبوا على أمرهم: أي قال أصحاب النفوذ وهم الملك وأصحابه.

استيقاظ الفتية من نومهم الطويل

ثم يبيّن القرآن كيف استيقظ الفتية من نومهم بعد مئات السنين: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُم[1] لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي وكما أنمناهم نوماً طويلاً وحفظنا أجسادهم من التحلل أيقظناهم من النوم ليسأل بعضهم بعضاً: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي قال أحدهم: كم بقيتم نياماً في الكهف؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي قال قسم منهم: قد استغرقنا في النوم يوماً كاملاً أو بعضاً من يوم، ولكن القسم الآخر أجاب: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي ربكم أعلم بالوقت الذي لبثتم فيه نياماً، وهذا ينبىء عن ترددهم في تقدير المدة التي ظلوا فيها نياماً لأنهم لما أفاقوا رأوا بعضهم بعضاً بصورة تغاير الصورة التي كانوا عليها يوم دخلوا الكهف.

ثم قال بعضهم لبعض بعد أن شعروا بالجوع: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي فأرسلوا واحداً منكم ومعه النقود الفضية التي معكم إلى المدينة ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي وليتخير أي الحلال من الأطعمة والأطيب والأنفع فليحضر مقداراً مناسباً منه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ أي وليتخذ وسائل التخفي والتنكر حتى لا ينكشف أمرنا للناس على يده ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ إن الملك وأتباعه إن يطلعوا على مكانكم يقبضوا عليكم ويقتلوكم رجماً بالحجارة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يجبروكم على العودة إلى دينهم ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ ولن تفوزوا عندئذ برضاء الله أبداً إن عدتم إلى دينهم من عبادة الأصنام.

هذه هي مواقف البطولة الحقة من هؤلاء الفتية في سبيل الدفاع عن عقيدتهم

---

(١) البعث: هنا هو الإيقاظ من النوم وقد سماه الله بعثاً لطول امتداد نومهم الشبيه بالموت وحيث يبعث الله الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة للحساب والمجازاة على أعمالهم.

بربهم التي جعلتهم يستميتون في سبيلها فكانوا نبراساً للأجيال التي تأتي من بعدهم ليأخذوا منهم درساً في التضحية بالغالي والنفيس في سبيل الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي وكما أنمنا الفتية تلك الفترة الطويلة ثم أيقظناهم من نومهم، كذلك أطلعنا الناس على أمرهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ليعلم الذين اطلعوا على أمرهم أن وعد الله حق بحصول البعث يوم القيامة لأنه شبيه بما حصل لهم ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وأن حدوث القيامة أمر لا شك فيه.

فأهل الكهف في استغراقهم في النوم سنين عديدة، ثم استيقاظهم من نومهم وهم أحياء، دليل على قدرة الله، وبرهان جليّ على حصول البعث يوم القيامة.

وقد كان اطلاع الناس على حقيقة أمرهم بواسطة النقود التي كان يحملها رفيقهم الذي ذهب ليشتري لهم بها طعاماً، حيث قال له البائع: هذه النقود غير موجودة في زماننا هذا، وإنها كانت موجودة قبل هذا الزمن بمدة طويلة، ولا بد أنك وجدت كنزاً؛ وتجمهر الناس حوله إلى أن ساقوه إلى القائمين على شؤون البلدة فقص عليهم قصته مع رفاقه، وأدركوا حينذاك حقيقة أمر هؤلاء الفتية ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ والتنازع هو التخاصم، وقد كان الناس في ذلك الزمن يتنازعون في صحة البعث، فمن مقرّ به وجاحد، ومن قائل يقول ببعث الأرواح دون الأجساد، وآخر يقول ببعثهما معاً، وربما كان التنازع في كيفية تكريمهم بعد موتهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم لئلا يدخل عليهم أحد، ضنًّا بتربتهم ومحافظة عليهم ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي ربهم أعلم بما تنازع الناس في أحوالهم وفي مدة وجودهم في الكهف ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ قال أصحاب النفوذ وهم الملك وحاشيته: لنتخذن على باب الكهف مسجداً[1] نعبد الله فيه.

---

(١) المسجد: الموضع الذي يُتعبد فيه ويسجد فيه لله، ومن هنا جاء التعبير بالمسجد على مكان العبادة عند المسلمين.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

شرح المفردات

رَجْماً بالغيب: القول بالظن والتخمين الذي لا دليل عليه.

بِعِدَّتِهم: بعددهم.

فلا تمار: فلا تجادل.

ولا تستفت فيهم منهم أحداً: ولا تسأل أحداً عن قصتهم ولا تطلب الفتيا منهم.

رشداً: هداية.

أبْصِرْ به وَأسْمِعْ: ما أبصر الله وما أسمعه لأنه لا يغيب عن نظره وسمعه أي شيء!

مَا لَهُم مِنْ دُونه مِنْ وليّ: ما لهم من غير الله من ناصر ومتولٍّ لأمورهم.

عدد الفتية ومدة استغراقهم في النوم

ثم يبين القرآن اختلاف الناس في تقدير عدد الفتية:

﴿سَيَقُولُون ثَلاثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُم﴾ أي سيقول هؤلاء الذين يذكرون قصتهم في عهد النبي محمد ﷺ من أهل الكتاب: إن عددهم ثلاثة، والرابع هو كلبهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُم كَلْبُهم﴾ ويقول البعض: هم خمسة فتيان والسادس هو

كلبهم ﴿رَجْماً بِالغَيْبِ﴾ والرجم بالغيب هو القول بالظن من غير تثبت ولا يقين، وهو تصوير بديع واستعارة للذي يرجم «أي يرمي بالحجارة» على شيء مغيب عنه، وليس أمامه شيء محدّد يرميه.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهم كَلْبُهم﴾ وهذا هو القول الراجح ـ والله أعلم ـ لأن الله لمّا ذكر القولين الأولين أتبعهما بقوله: ﴿رَجْماً بِالغَيْبِ﴾ فلمّا ذكر القول الثالث لم يعقّب عليه بشيء ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي قل يا محمد لمن سألك عن عددهم: الله ربي أعلم بعددهم ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس أطلعهم الله على عددهم ﴿فَلا تُمارِ فيهم إلاَّ مِراءً ظَاهِراً﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلاّ جدالاً هيناً يسيراً من غير عنف ﴿ولا تَسْتَفتِ فيهم مِنْهُم أحداً﴾ ولا تسأل أحداً من اليهود عن قصتهم فإنهم لا علم لهم بذلك عن يقين ومعرفة.

﴿ولا تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إنّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً. إلاَّ أن يَشاءَ اللَّهُ﴾ هذا إرشاد من الله لرسوله محمد ولكافة المؤمنين بأنهم إذا عزموا على فعل شيء ما في غدهم أو في المستقبل، فعليهم أن يردّوه إلى مشيئة الله عزّ وجل علاّم الغيوب لأن الإنسان لا يعلم ما سيجري له في غدٍ، ولا يدري هل الذي عزم على فعله سيتحقق أم لا؟ والمراد من الآية النهي عن اعتداد الإنسان بقوته ونسيان إرادة الله المسيطرة على قدراته. هذا وقد ذكرنا أسباب نزول هذه الآية في مطلع السورة ﴿واذْكُرْ رَبَّك إذَا نَسِيتَ﴾ واذكر ربك إذا نسيت ذكره، واذكره عند العزم على فعلٍ ما، وقل: إن شاء الله، وإذا نسيت أن تقول ذلك ثم تذكرت فقلها ولو بعد مدة من الزمن ﴿وَقُلْ عَسَى أنْ يَهْدِيَنِ ربِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشداً﴾ أي وقل: لعلَّ الله يؤتيني من البينات والحجج على أني نبي صادق بما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبأ أصحاب الكهف، وقد فعل الله ذلك حين آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك مما يشهد أنه رسول الله حقًّا.

﴿وَلَبِثوا في كَهْفِهِم ثَلاثَ مِائَةٍ سِنينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ أي ومكث الفتية في كهفهم نياماً ثلاثمائة سنة مع زيادة تسع سنوات. وقفة هنا لنقول: لماذا لم يقل القرآن ثلاثماية وتسع سنين؟ ولماذا قال: وازدادوا تسعاً؟ هنا إشارة إلى عدد السنين بالنسبة إلى السنة القمرية، فثلاثمائة سنة شمسية تقابلها ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية. وقد سبقت هذه الآية علم الفلك. فإلى الذين يدّعون أن القرآن من تأليف محمد بهتاناً وجهلاً نقول إن محمداً لم يكن عالماً بالحساب الفلكي، ولم يدرس في معاهد العلم ولكنه أتى بحقيقة علمية تشهد أنه رسول الله يأتيه الوحي من الله.

﴿قُلِ اللَّهُ أعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي قل يا محمد: الله أعلم بالزمن الذي مكث فيه الفتية نياماً في الكهف ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ له سبحانه علم ما خفي وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء ﴿أبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾، أفاد هذا التعجب أن شأنه سبحانه في علم المبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك الناس وسائر خلقه لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مَنْ وَلِيٍّ﴾ ما لهم من غير الله من ناصر ينصرهم ويتولى أمرهم ﴿ولا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أحداً﴾ ولا يجعل الله شريكاً له في قضائه وحكمه في خلقه بل هو المنفرد بالحكم والقضاء بينهم.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

شرح المفردات

واتلُ: واقرأ.
ملتحداً: ملجأ تلجأ إليه.
واصبر نفسك: احبسها وثبتها.
الغداة: ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس أي أول النهار.
العشيّ: آخر النهار.
ولا تَعْدُ عيناك عنهم: أي لا يجاوز نظرك إلى غيرهم والمراد لا تهمل شأنهم.
فُرطاً: متجاوزاً عن الحق.

تلاوة القرآن وملازمة الأخيار

ثم يأمر الله رسوله محمداً بأن يواظب على تلاوة القرآن الموحى إليه من الله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ هذا الطلب بقراءة القرآن يشمل المؤمنين جميعاً وذلك بتدارسه وفهم معانيه واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه، وتبليغ ما فيه من هدى إلى الناس ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا مغيّر ولا محرِّفَ لكلمات القرآن، هذه الحقيقة أعلنها القرآن منذ خمسة عشر قرناً، وها هي كلمات القرآن باقية على حالها وقد وصلت إلينا بالتواتر لم يطرأ عليها تحريف ولا تبديل ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ ولن تجد من غير الله موئلاً ولا ملجأ تركن إليه.

ويتابع الله خطابه لرسوله محمد ﷺ: ﴿واصْبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يدْعونَ ربهم بالغَدَاةِ والعَشيِّ يُريدون وَجْهَهُ﴾ هذه الآية نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم مع الضعفاء من أصحابه الفقراء كبلال، وصهيب، وخبّاب. ومعنى الآية: واحتفظ ـ أيها الرسول ـ بصحبة صحابتك من المؤمنين الذين يعبدون الله وحده في الصباح والمساء، والمراد جميع الأوقات، سواء أكانوا فقراء أو أغنياء أو ضعفاء، يريدون رضوان الله ﴿وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُم تُرِيدُ زِينَةَ الحياةِ الدُّنيا﴾ ولا تصرف عينيك عن هؤلاء الضعفاء وتنصاع إلى الكفار، تبتغي بمجالستهم الشرف والجاه والتمتع معهم بزينة الحياة الدنيا. هذا وإن النبي

ﷺ لم يرد الحياة الدنيا وزينتها ولكن كان الخطاب موجهاً إليه لكي يحترس المؤمنون من استهواء الدنيا وطلب زينتها ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ أي ولا تطع يا محمد من يريد طرد فقراء المؤمنين من مجلسك ممن جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا لسوء طويته، واتبع هواه وآثره على الحق وكان أمره ضياعاً وهلاكاً وإسرافاً.

فشر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً من ذكر الله مملوءاً بالهوى والشهوات، ومثل هذا الصنف من الناس لا ينبغي طاعته لأنه لا يأتي بخير ولا يرشد إلى هدى.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

شرح المفردات

أعتدنا: أعددنا وهيأنا.

سرادقها: السرادق الخيمة وكل ما أحاط بالشيء أو ما يمد فوق ساحة البيت.

المهل: عكَر الزيت، أو ما أذيب من النحاس والرصاص.

ساءت مرتفقاً: ساءت متكأ ومنتفعاً.

جنات عدن: جنات ذات إقامة دائمة.

سُندس: رقيق الحرير الملون.

إستبرق: ما غلظ من الحرير.

الأرائك: السرر الفاخرة.

مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة

ثم يبين الله أن الدين الذي أنزله على رسوله هو الحق: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم﴾ أي قل يا محمد للناس: إن هذا الدين الذي جئتكم به من ربكم هو الحق، والحق هو بغية كل عاقل وغاية كل منصف ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ فمن شاء أن يؤمن بهذا الحق فليؤمن فذلك خير له، ومن شاء أن يكفر به فله ما يشاء. ولا يُفهم من ذلك أنه تخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد، والدليل على ذلك ما جاء في القرآن عقب ذلك ﴿إنَّا أعْتَدْنَا للظَّالِمينَ نَاراً أحَاطَ بِهِم سُرَادِقُهَا﴾ أي إن الله أعد وهيأ للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والإنكار لأنبيائه ناراً تحيط بهم كالسرادق، والسرادق هو الخيمة وكل ما أحاط بالشيء من سور أو نحوه ﴿وَإنْ يَسْتَغِيثوا يُغَاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوي الوجوهَ﴾ وإن يطلب هؤلاء الظالمون الإغاثة من عذاب النار يُغاثوا بماء شديد الحرارة لونه كعكر الزيت أو كالمعادن المذابة من شدة الحرارة يشوي وجوههم ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ قَبُحَ هذا الشراب لهم ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وساءت هذه النار متكأ ومتفعاً.

وبعد هذا التهديد للكافرين تأتي البشارة من الله للمؤمنين: ﴿إنَّ الَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً﴾ أي إن الذين آمنوا بالله وبالدين الحق الذي أنزله على رسوله محمد، وعملوا بصالح الأعمال، هؤلاء لهم ثوابهم عند ربهم، والله لا يضيع ثواب المحسنين على أعمالهم ﴿أولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأنْهَارُ﴾ أما ثوابهم فهو الدخول إلى جنات ذات إقامة دائمة، منعَّمين فيها، وتنساب الأنهار من بين أشجارها وقصورها ﴿يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يتزينون في الجنة بأساور من ذهب ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ﴾ أي يلبسون الثياب الخضر من الحرير على اختلاف أنواعه مما رق منه وما غلظ ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأرائِكِ﴾ ويتكئون على السرر الفاخرة ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ

وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ نعم هذا النعيم الذي أثابهم الله عليه وحسنت الجنة لهم منتفعاً ومسكناً وراحة يجدون فيها كل ما يطلبون.

﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

شرح المفردات

واضرب لهم مثلاً: واذكر لهم مثلاً.
جنتين: بستانين.
أعناب: جمع عِنَب وهو ثمر الكَرْم.
وحففناهما بنخل: جعلنا النخل محيطاً بالبستانين.
آتت أكلها: أعطت ثمرها الذي يؤكل.
ولم تظلم منه شيئاً: ولم تنقص من أُكُلِها شيئاً.
يحاوره: المحاورة هي مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.
أعَزُّ نَفَراً: أقوى أعواناً وعشيرة.
تبيد: تهلك وتفنى.
منقلباً: مرجعاً وعاقبة.

مثال من الغرور والبطر

بعد أن أمر الله رسوله محمداً بملازمة أصحابه الفقراء وعدم الاستجابة لمطالب المشركين بطرد الفقراء منهم من مجلسه، طلب منه بعد ذلك أن يقدم

لهؤلاء الأغنياء من المشركين مثلاً لعلَّهم يعتبرون به، وهذا المثل هو: أن رجلين أحدهما كافر مستكبر قد أبطرته النعمة فلم يعد قابلاً للنصح والإرشاد، والثاني: رجل فقير مؤمن بربه مدرك طبيعة هذه الحياة التي لا تستقر على حال:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ أي واضرب مثلاً يا محمد لهؤلاء المشركين حال رجلين جعل الله لأحدهما بستانين من كروم العنب محاطين بشجر النخيل وفي أرجائهما الزروع من الأشجار المثمرة والخضار.

﴿كِلْتَا الجنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيئاً﴾ وقد أثمرت كل واحدة من هاتين الجنتين ثمرها ناضجاً موفوراً، ولم تنقص منه شيئاً في كل عام ﴿وَفَجَّرنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾ أي وشققنا نهراً وأجريناه ينساب بين أشجار البستانين لسقي هذه الزروع ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وكان لصاحب البستانين أنواع أخرى من المال، كالنقدين: الذهب والفضة، والمواشي؛ وسُمِّي ثمراً لأنه يثمر: أي يزيد ﴿فَقَالَ لصَاحِبِه وهُوَ يُحَاوِرُهُ: أنَا أكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأعَزُّ نَفَراً﴾ أي قال الغني لصاحبه الفقير وهو يجادله: أنا أكثر منك ثروة وأقوى عشيرة.

لقد نسي هذا الغني أنه مخلوق ضعيف يحتاج إلى رحمة الله في كل لحظة، وفاخر بماله وعشيرته امرأً فقيراً، وكان مقتضى الحال أن يشكر الله على نعمه لا أن يغتر بها، كما كان من مقتضى الأدب والذوق أن لا يفاخر بما عنده من مال على صاحبه الفقير لأن ذلك يوقع الحسرة والألم في قلبه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعدى ذلك إلى المفاخرة الفعلية المشحونة بالبطر والغرور:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ: مَا أَظُنُّ أَنْ تبيدَ هَذِه أبداً﴾ أي ودخل الكافر أحد البستانين اللذين يملكهما برفقة صاحبه المؤمن الفقير وهو مأخوذ بغروره

ظالم لنفسه بالكفر قائلاً: ما أعتقد أن هذا البستان يفنى أبداً ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وما أعتقد أن القيامة كائنة وحاصلة ﴿وَلَئِنْ رُدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ ولئن فرض بأن هناك بعثاً ورجعت إلى ربي كما تزعم لأعطاني ربي في الآخرة خيراً من هذا البستان جزاء لي ولكرامتي عنده، ولولا استحقاقي ذلك ما أغناني الله في الدنيا.

ليس في الوجود أجهل من زَعْمِ الإنسان عند غناه بأنه يتميز في ذاته وتكوينه على سواه، والله سبحانه يردّ على أمثال هؤلاء الأغنياء بما جاء في سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [آية: ٣٦، ٣٧].

فالغنى ليس علامة الرضا من الله، والفقر ليس علامة السخط من الله، بل إن كلاًّ من الغنى والفقر هما امتحان من الله للإنسان ليرى سبحانه مبلغ صدق الإنسان في إيمانه عند الغنى، ومدى صبره عند الفقر.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

شرح المفردات

يحاوره: يراجعه في الكلام ويجادله.
نطفة: ما يتخلّق من اجتماع بويضة المرأة ومنيّ الرجل.
جنتك: بستانك.
ويرسل عليها حسباناً من السماء: ويرسل على جنتك آفة من السماء تتلفها كالصواعق.
صعيداً زلقاً: أرضاً ملساء تزلّ فيها القدم لملاستها بعد استئصال نباتها وأشجارها.
ماؤها غوراً: ماؤها غائراً في الأرض.
وأحيط بثمره: أهلكت الأشجار مع ثمارها.
فأصبح يقلّب كفيه: فأصبح نادماً متحسّراً.
خاوية على عروشها: سقطت الدعائم على الأرض وسقطت كروم العنب فوقها. والعروش: جمع عرش، وعرش الكرم تدعيمه بالخشب وغيره لتمتد عليه قضبان الكرم.
هنالك الولاية لله الحق: في ذلك المقام تكون النصرة لله الحق.
عقباً: عاقبة.

نهاية البطر

وبعد كلام الكافر الذي يشعّ منه الطغيان والبطر والخيلاء يأتي كلام المؤمن الفقير المشتمل على التواضع والحكمة والموعظة الحسنة:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ أي قال المؤمن لصاحبه الغنيّ وهو يراجعه في الكلام ويجادله: أتسوّغ لنفسك أن تكفر بربك حيث أنكرت القيامة، لأنه شك في قدرة الله، وما كان ينبغي أن تكفر بخالقك الذي أوجدك من تراب، فأصلك من آدم، وآدم خلق من تراب، وغذاء الإنسان من النبات والحيوان الذي يتغذى بالنبات، والنبات أصله من التراب؛ وينشأ من الغذاء نطفة (أي منيّ الرجل والمرأة) حيث يحصل من التقائهما تلقيح إحدى الحيوانات المنوية بويضة الأنثى، وسرعان ما تنقسم البويضة وتتحول إلى مجموعات كبيرة من الخلايا، وبعد تطورات شتى في رحم المرأة تصبح

جنيناً ثم إنساناً تام الخلقة، فالذي استطاع أن يخلق الإنسان على هذا الشكل المعجز كيف يُستبعد على قدرته أن يبعث الخلق أحياء يوم القيامة؟

ويتابع المؤمن قوله: ﴿لكنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أحداً﴾ لكن شأني الإيمان بالله فهو ربي الذي خلقني فأنا معترف بربوبيته، ولا يخالجني شك في قدرته، ولا أشرك به أحداً في عبادته.

ويقول المؤمن لصاحبه الغني: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ﴾ أي هلاّ قلت عند دخولك جنتك «أي بستانك» والنظر إلى ما رزقك الله منها من الثمرات: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ اعترافاً منك بأن ما فيها من أشجار مثمرة وزروع إنما حصل بمشيئة الله وفضله. وهلاّ قلت: ﴿لا قُوَّة إلاَّ باللَّهِ﴾ اعترافاً بعجزك وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبيرها والحصول على ثمراتها إنما هو بفضل الله تعالى؟ وهذا تعليم لنا بأنه إذا أعجبنا شيء من المقتنيات أو المال أو ما رزقنا من الولد فلنقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ﴾ فهذا القول يديم النعم ويحفظها من الزوال بإذن الله.

ثم أجاب المؤمن الورع صاحبه الغني بشأن افتخاره عليه بالمال والولد:

﴿إِنْ تَرَنِ أنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلداً﴾ أي إن كنتُ أقل منك مالاً وأولاداً في الدنيا ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ لعل ربي أن يعطيني خيراً من بستانك هذا في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويرسل على بستانك عذاباً من السماء كصواعق تحرقه أو ريحاً شديدة تقلع زرعه وتتلف شجره ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ فيصبح بستانك أرضاً ملساء لا نبات عليه ولا شجر ﴿أو يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ أو يصبح ماؤها غائراً في الأرض لا تناله الأيدي بعد أن كان يسيل على وجه الأرض ﴿فَلَنْ تَسْتطيعَ لَهُ طَلَباً﴾ فلن تستطيع الوصول إليه.

وصح ما توقعه المؤمن الفقير، فأصبح الغني يوماً فإذا أشجار جنته وزروعها

قد أصابها التلف من جائحة سماوية أتت على كل ما فيها وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وأُحِيطَ بِثَمرِهِ﴾ أي أهلكت هذه الجائحة ثمار جنته واتلفتها ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر على ما أنفق عليها من جهد ومال ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي سقطت دعائم كروم العنب على الأرض وسقطت كروم العنب فوقها ﴿وَيقُولُ: يا ليتني لَمْ أُشْرِك بِرَبِّي أَحَداً﴾ أي تمنى عند مشاهدته هلاك جنته أنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وعند هذه المحنة لم تكن له عشيرة تنصره بدفع الهلاك عن ممتلكاته متجاوزة قدرة الله وإرادته ﴿ومَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ وما كان قادراً على نصرة نفسه ولم تنصره عشيرة انتسب إليها أو ولد من أولاده الذين سبق أن افتخر بهم واعتز ﴿هُنَالِكَ الوَلاية لِلَّه الْحَقّ﴾ في هذه الشدة تكون النصرة لله ذي الحق ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ والله خير لمن آمن به وأطاعه فيكافئه على إيمانه وأعماله الصالحة، وهو خير عاقبة لمن رجاه واعتمد عليه وعمل بما أمره وانتهى عما نهاه عنه.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

شرح المفردات

هشيماً: يابساً متكسراً.

تذروه: تنثره وتفرقه.

مقتدراً: قادراً.

الباقيات الصالحات: أعمال الخير والعبادات وذكر الله، ثوابها باقٍ عند الله.

نُسيِّر الجبال: نقلع الجبال ونذهب بها عن وجه الأرض.

وترى الأرض بارزة: أي ظاهرة لا يسترها شيء مما كان عليها من جبال وأشجار.

وحشرناهم: وجمعناهم للحساب على أعمالهم.

فلم نغادر: فلم نترك.

موعداً: وعداً بالبعث.

مشفقين: خائفين.

نعيم الدنيا زائل ومصير المجرمين

ثم ينتقل القرآن إلى إعطاء صورة عن الحياة الدنيا للمغترّين بها:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك مثلاً للحياة الدنيا في نضرتها وبهجتها، ثم في سرعة فنائها كماء أنزله الله من السماء فارتوى به نبات الأرض واختلط بعضه ببعض فاخضرّ وأينع وأصبح في غاية الحسن والزينة من كل لون وثمر **﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾** أي لم يلبث طويلاً حتى جفّ وصار يابساً مفتتاً تفرّقه الرياح ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن. فعلى العاقل أن لا يغتر بالحياة الدنيا فإنها فانية ولو طالت مدتها، وزائلة ولو أعجبت الناس زينتها **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾** وكان الله قادراً على كل شيء إنشاءً وإفناءً.

﴿المالُ وَالبَنونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا أي في حسنها وبهجتها لأن في المال نفعاً بما يمكّن المرء من النعيم والترف

والحصول على ما يشتهيه. وفي البنين مصدر حبور وعز لوالديهم بما يقومون به عنهم بكثير من أعباء الحياة وتلبية حاجاتهم والقيام بخدمتهم عند سنين العجز والهرم.

وتقديم المال على البنين لأنه أقدر على تلبية الحاجات وتحقيق معنى الزينة في البنين، والبنون بدون المال يضفي وجودهم على الأسرة البؤس والشقاء.

ومن روعة القرآن أنه لا يصادم الطبيعة الإنسانية ولا ينكرها إذ يقرر أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، ولكنه يحذر من الافتتان بهما بما يلهي عن ذكر الله وطاعته بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ثم يقول سبحانه بعد ذِكرِ المال والبنين: ﴿وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ فهذه الآية تجمع كل معاني الخير والعمل الصالح والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وتمجيد لله[1]، فكل هذه الأمور وغيرها من أعمال البر هي من الباقيات الصالحات، فهي خير بما يجزل عليها الله سبحانه من الثواب والأجر الجزيل يوم القيامة، وهي خير أملاً في الآخرة من المال والبنين، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية.

ثم ينتقل القرآن إلى إعطائنا صورة عن يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي واذكر يا محمد حين نقلع الجبال من أماكنها يوم القيامة ونسيّرها في الجو على هيئاتها، أو نسيّر أجزاءها بعد

---

(١) من الصيغ لتمجيد الله بما روي عن النبي ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلاّ الله، والله أكبر».

أن نجعلها هباء متفرقاً، وترى الأرض ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبل أو شجر أو بنيان ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُم أَحَداً﴾ ونجمع الناس جميعاً الأولين والآخرين للحساب فلا نترك منهم أحداً بلا جزاء ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ حيث يعرض الناس في هذا اليوم في جموع مصفوفة أمام ربهم ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ويقول الله تعالى: لقد بعثناكم أحياء كما أوجدناكم أول مرة عراة لا شيء معكم من المال والولد ﴿بَلْ زَعَمْتُم أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِداً﴾ أي بل زعمتم في الدنيا أنكم لن تُبعثوا أحياء يوم القيامة، وأننا لن نجعل لكم موعداً نجازيكم فيه على أعمالكم.

﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرى المجرمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي ووضع في يد كل إنسان كتاب أعماله فترى المجرمين من الكفار خائفين مما دُوِّن فيه من أعمالهم السيئة، وخائفين من ظهور ذلك على الملأ ﴿وَيقُولُونَ: يا ويْلَتَنا مالِ هَذا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحْصَاهَا﴾ ويقولون: وافضيحتاه! أي شيء هذا الكتاب الذي لم يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلاَّ أثبته وسجله ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ ووجدوا ما عملوا في الدنيا من السيئات مكتوباً مثبتاً في كتابهم، وقيل: رأوا جزاءه حاضراً ﴿ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَداً﴾ ولا يظلم ربك أحداً من عباده فلا يعاقب أحداً بغير ذنب اقترفه.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم

مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

شرح المفردات

ففسق عن أمر ربه: خرج عن طاعة ربه.

عضداً: أعواناً في الخلق.

موبقاً: مهلكاً.

فظنوا: فأيقنوا.

مواقعوها: داخلوها أو واقعون فيها.

مصرفاً: معدلاً ومكاناً ينصرفون إليه هرباً من النار.

جدلاً: المنازعة في الرأي على سبيل المغالبة والمخاصمة.

النهي عن طاعة إبليس

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن عصيان إبليس لربه:

﴿وإذْ قُلْنَا لِلملائِكَةِ اسْجدوا لآدَمَ﴾ أي واذكر يا محمد وقت قولنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية وتكريم ﴿فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ﴾ فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، فخرج عن طاعة ربه بمخالفة أمره تكبُراً، فكأن الله يقول لأولئك الكافرين المتكبرين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم وعشيرتهم: إنكم اقتديتم بإبليس في تكبره على آدم. وسبب رفض إبليس السجود لآدم اغتراره بأصله حيث قال لربه كما ذكر القرآن: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

﴿افَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أوْلِيَاءَ مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُم عَدُوٌّ﴾أي أتتخذون إبليس وذريته نصراء يلون أمركم فتطيعونهم بدل طاعة الله والحال أن إبليس وذريته أعداء

لكم؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ أي بئس للمستبدلين طاعة ربهم بطاعة الشيطان، ووصفهم بالظلم لأن الظلم في اللغة هو الجوْر ومجاوزة الحد ووضع الشيء في غير موضعه.

﴿مَا أَشْهَدتُّهُم خَلْقَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضِ﴾ الضمير يعود على إبليس وذريته والمشركين وعلى جميع الخلق. والمعنى: ما أحضرتهم لأستعين بهم في خلق السماوات والأرض وأشاورهم في تدبير أمرهما حين خلقتهما ﴿وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِم﴾ ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ولم يشاهدوا ذلك. وفي هذا إشارة إلى غنى الله تعالى ونفي مشاركتهم له سبحانه في الألوهية، وردّ على المنجّمين الذين يتنبأون بمصائر الناس ويخترعون الأقوال الكاذبة في شأن الأبراج وتأثيرها على الناس، فعلم الغيب اختص به الله سبحانه لا يشاركه فيه أحد من خلقه ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّين عَضُداً﴾ أي وما كان الله متخذ الضالّين المضلّين أنصاراً وأعواناً.

﴿وَيَوْمَ يَقولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِين زَعَمْتُم﴾ أي ويوم القيامة يقول الله للمشركين توبيخاً لهم وتعجيزاً: نادوا الذين زعمتم أنهم شركائي لينفعوكم ويشفعوا لكم، أضاف الله الشركاء إليه تهكماً بهم لزعمهم بأن لله شريكاً، والله سبحانه منزه عن الشريك وله الحكم وحده ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي فاستغاث المشركون بمن يزعمون أنهم شركاء لله فلم يبالوا بهم ولم ينصروهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقاً﴾ وجعل الله ما بينهم في الدنيا من تواصل وعبادة مهلكاً لهم في الآخرة.

﴿وَرَأَى المجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي ورأى الكفار النار في الآخرة ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا﴾ فأيقنوا أنهم واقعون فيها ومخالطوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ ولم يجدوا مكاناً ينصرفون إليه أو ملجأ يلجأون إليه لأن النار أحاطت بهم من كل جانب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا في هَذَا القرآنِ للنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بينّا وردّدنا في هذا

القرآن للناس من كل مثل ليتعظوا به ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً﴾ والجدل: المنازعة في الرأي على سبيل المغالبة والخصومة بالباطل، هذه هي الطبيعة البشرية في كثير من الناس حيث ترى التنازع بينهم في الرأي والجدال بالباطل يظهر على ألسنتهم في مجتمعاتهم أو في أنديتهم أو في محافلهم السياسية، أو يظهر كتابة على صفحات الصحف بأساليب ملتوية لا يبتغون من جدالهم وجه الله، ولا كلمة الحق بل الحصول على منافعهم الذاتية ومغانمهم الشخصية.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

شرح المفردات

سُنَّة الأولين: عذاب الأمم السالفة أو هلاكها بسبب ظلمها وكفرها.

يأتيهم العذاب قُبُلاً: أي تأتيهم ضروب العذاب تتواصل عليهم عياناً ومواجهة.

هزواً: استهزاء وسخرية.

ليدحضوا: ليبطلوا.

ما قدّمت يداه: ما عمل من الكفر والمعاصي.

أكنّة: أغطية.

يفقهوه: يفهموه.
وفي آذانهم وقراً: أي صمماً معنويًا يمنعهم أن يستمعوا إليه وينتفعوا به.
لو يؤاخذهم: لو يعاقبهم.
بما كسبوا: بما عملوا من المعاصي.
موئلاً: منجى وملجأ.

إنذار للظالمين

ثم تأتي الآيات وفيها التهديد والوعيد لمن يعرض عن هدى الله:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أن يُؤْمِنُوا إذْ جَاءَهُمُ الهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُم﴾ أي وما منع كفار قريش من إيمانهم بوحدانية الله وترك ما هم عليه من الشرك بالله حين جاءهم محمد بالقرآن الذي فيه الهدى من ربهم، وما منعهم من الاستغفار لذنوبهم والتوبة منها **﴿إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾** أي تأتيهم سُنَّة الله وطريقته في الأمم الماضية وهي أنهم إذا لم يؤمنوا وأصرّوا على الإفساد في الأرض عُذّبوا **﴿أو يأْتِيَهُمُ العَذَابُ قُبُلاً﴾** أو تأتيهم ضروب العذاب تتواصل عليهم عياناً ومواجهة، هكذا كان الأمر المتبع في الأمم السابقة التي لم تؤمن بما جاء به رسل الله، وهذا ما سيصيب كل من يرفض هدى الله.

﴿وَمَا نُرْسِلُ المُرسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وما يرسل الله رسله إلى الناس إلاّ ليبشروا المؤمنين المتقين ربهم بالثواب، ويخوّفوا الكافرين العاصين ربهم بالعقاب **﴿وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾** أي ويجادل الذين كفروا رسل الله بالباطل حيث يقولون: ما أنتم إلاّ بشر مثلنا، ولو شاء لأنزل ملائكة، وذلك ليزيلوا ويبطلوا بهذا الجدال ما جاء به رسل الله من الحق **﴿وَاتَّخَذُوا آياتي وَمَا أُنْذِروا هُزُواً﴾** واتخذوا حجج الله والمعجزات التي أيد الله بها رسله وما خوّفوا به من عذاب الله سخرية واستهزاء، وهذه هي نفس الطريقة التي سلكها كفار مكة **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ﴾** أي ومن أشد ظلماً ممن وُعِظَ بآيات القرآن **﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا**

وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي فامتنع عنها وولاّها ظهره ولم يتدبّرها، ونسي ما عمله من الكفر والمعاصي ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ﴾ أي إن الله جعل على قلوبهم أغطية تحول دون وصول الهدى إليها بسبب سوء طويتهم وتكبرهم ﴿وفي آذانهم وَقْراً﴾ وجعل الله في آذانهم صمماً معنويًا يمنعهم من سماع الرشاد ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ وإن تدعهم إلى طريق الفلاح وهو دين الإسلام فلن يستجيبوا لك أبداً. هذه طبيعة كثير من الناس الذين آثروا الضلال على الهدى اتباعاً منهم لآبائهم الضالين، أو إيثاراً لأهوائهم وشهواتهم، فمهما وضعت أمام هؤلاء من الحجج الدامغة على فساد سلوكهم فلن يغيروا ما هم عليه من ضلال.

﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذو الرَّحْمَةِ﴾ والغفور من صيغ المبالغة، أي إن الله واسع المغفرة لذنوب عباده وهو المتصف بالرحمة. وهذا ما يفتح باب التوبة على مصراعيه أمام النفوس المذنبة بما ترتجي من مغفرة الله ورحمته ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعجَّل لَهُمُ العَذَابَ﴾ أي لو شاء الله أن يؤاخذ الكافرين بما عملوا من السيئات والمعاصي لعجَّل لهم العذاب في الدنيا من غير إمهال ﴿بَلْ لَهُم مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ بل لهم موعد لعذابهم لن يجدوا من غير الله منجى ولا ملجأ يبعدهم عنه، وهذا العذاب هو عذاب الآخرة، وقد يكون في الدنيا كما حصل يوم معركة بدر حيث قتل سبعون من كفار قريش.

ثم يوجه القرآن الأنظار إلى مصارع الأمم السابقة التي حلّ بها الهلاك بسبب ظلمها: ﴿وَتِلْكَ القُرَى أهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي وأمم تلك القرى كعاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكهم الله لمّا وقع منهم الظلم، والظلم هو التعدي على حدود الله بالكفر والمعاصي واستباحة حقوق الناس ﴿وَجَعَلْنَا لِمهلِكهم مَوْعِداً﴾ أي وجعل الله لهلاكهم موعداً لا يتأخرون عنه. فكذلك حال الظالمين من قومك يا محمد فإن لهم موعداً لهلاكهم إذا استمروا على كفرهم وعصيانهم لربهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

شرح المفردات

لا أبرح: لا أزال أسير.

مجمع البحرين: ملتقاهما.

أمضي حقباً: أسير زمناً طويلاً. والحقبة: ثمانون سنة، أو دهراً.

سرباً: مسلكاً ومنفذاً.

نصَباً: تعباً وشدة.

أوينا: التجأنا.

ذلك ما كنا نبغ: ذلك ما كنا نطلب.

فارتدّا على آثارهما قصصاً: فرجعا على طريقهما الذي جاءا منه يتتبعان آثارهما.

من لدنّا علماً: علماً من عند الله.

رشداً: صواباً أرشد به وأحصل به على الخير.

لم تحط به خبراً: لم تعرف أسراره.

قصة النبي موسى مع الخضر عليهما السلام

بعد أن ذكر الله سبحانه حال المشركين الأغنياء الذين افتخروا على فقراء المؤمنين أتبع ذلك بذكر قصة موسى نبيّ بني إسرائيل مع العبد الصالح الذي يلقب بالخضر[(١)] ليبين بهذه القصة بأن موسى عليه السلام مع كونه رسول الله الذي اصطفاه الله بكلامه ورسالته إلى الناس، أمره الله سبحانه أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه علماً خاصًّا لا يعلمه، وليفهمه أن الإنسان مهما علا شأنه في العلم فإن في عباد الله من يفوقه علماً في نواحٍ أخرى لم يصل إليها علمه، وهذا درس يقدمه لنا القرآن في هذه القصة للتواضع وعدم الفخر والتكبر على عباد الله، وصدق الله إذ قال: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

والسبب الذي أمر الله به موسى للاجتماع بالخضر هو أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئِل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى اللَّهُ إليه: إن لي عبداً[(٢)] بمجمع البحرين[(٣)] هو أَعْلَمُ منك، قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به؟ قال تأْخُذُ مَعَكَ حُوتاً[(٤)] فتجعَلُهُ في مِكْتَلٍ[(٥)] فحيثما فَقَدْتَ الحوت فهو ثَمَّ (أي هو هناك)، فأخذ موسى حوتاً فجعله في مِكْتَلٍ ثم انطلق وانطلق معه فتاه[(٦)] يوشع بن نُون، حتى إذا أتيا الصخرة... قال موسى لفتاه: لا أُكلفك إلاَّ أن تُخبرني حيث يفارقك الحوت.. ثم أخذت موسى سِنة من النوم،

---

(١) سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء. والفروة هي أرض بيضاء ليس فيها نبات.

(٢) ليس المراد بالعبد المعنى المتعارف عليه بأن لونه أسود أو أنه مسترقّ ولكن العبد هنا بمعنى عبدالله.

(٣) مجمع البحرين: ملتقى البحرين.

(٤) الحوت في اللغة يطلق على السمكة كبيرة كانت أم صغيرة.

(٥) مكتل: قفة لحمل السمك.

(٦) فتاه: خادمه.

وبينما كان يوشع في ظل هذه الصخرة اضطرب الحوت في المكتل فخرج منه وسقط في البحر، وموسى نائم، فقال يوشع في نفسه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره[١].

* * *

بعد هذا التمهيد الذي روي عن النبي ﷺ ننتقل إلى ذِكْرِ ما جاء في القرآن في هذا الصدد:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْـرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرينِ أو أمضِيَ حُقُباً﴾ أي واذكر يا محمد حين قال موسى لفتاه سأستمر بالسير حتى أصل إلى المكان الذي فيه ملتقى البحرين ولو سرت زمناً طويلاً. ومجمع البحرين هو مكان اجتماع البحرين ليصيرا بحراً واحداً، وفي تحديد المكان أقوال، منها ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندي عند باب المندب، ومنها، ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق، ومنها أنه التقاء رافدي نهر النيل قرب مدينة الخرطوم؛ ويطلق البحر على كل نهر عظيم.

وفي قول موسى ﴿أو أَمْضِيَ حُقُباً﴾ أي أسير دهراً، هو صورة عن تصميم العزم على متابعة السير للالتقاء بالخضر وطلب العلم منه مهما كلف ذلك موسى من مشاقّ واستغرقه من زمن.

﴿فَلَمَّا بَلغَا مَجْمَعَ بَيْـنِهِمَا نَسِيَـا حُوتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبيلَـهُ في الْبَحْرِ سَرَباً﴾ أي فانطلق موسى ويوشع يمشيان حتى وصلا إلى مكان اجتماع البحرين واستراحا عند صخرة هناك حيث نسيا في ذلك المكان حوتهما الذي حملاه معهما بأمر الله، وعند الصخرة اضطرب الحوت وعاودته الحياة فاتخذ طريقه في البحر مسلكاً.

---

(١) باختصار عن صحيح البخاري.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَداءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾ فلما تخطى موسى وفتاه يوشع في سيرهما ملتقى البحرين حيث تركا الحوت، وابتعدا عن هذا المكان، أحسا بالجوع والتعب، فقال موسى لفتاه: أعطنا غداءنا لنأكله، لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً ومشقة.

﴿قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرةِ فَإِنّي نَسِيتُ الحوت وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البحر عَجَباً﴾ أي قال يوشع لموسى: أتذكر حين لجأنا إلى الصخرة في ملتقى البحرين حيث أخذَتْكَ سِنَةٌ من النوم؟ لقد نسيت أن أخبرك ما حدث للحوت، فإنه قد دبت فيه الحياة واضطرب ووقع في البحر واتخذ طريقه في الماء مسلكاً عجيباً حيث انجاب[1] الماء عن مسلك الحوت حتى أصبح مثل النفق داخل الماء وصار الماء عليه كالقنطرة[2]، وما أنساني أن أذكر لك ذلك إلا الشيطان ووساوسه في قلبي.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثارِهِما قَصَصاً﴾ أي قال موسى: ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت هو ما كنا نطلبه ونسعى إليه لأنه علامة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر؛ فرجعا في الطريق الذي سلكاه سابقاً يتتبعان آثار أقدامهما إلى أن وصلا إلى الصخرة حيث فقدا الحوت.

﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبَادِنا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ أي فوجد موسى وفتاه عند الصخرة عبداً من عباد الله وهو: الخضر، مغطّى بثوب أبيض، وقد وصف الله هذا الرجل بثلاث صفات: أولاً أنه من عباد الله الصالحين، كما أضافه الله إلى ذاته حيث قال: (من عبادنا) وهذا تكريم له. ثانياً: أعطاه الله

---

(١) انجاب: انشق، انكشف.

(٢) جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ: «وأمسك الله عن الحوت جزية الماء فصار عليه مثل الطاق» والطاق ما جعل من الأبنية كالقوس في القناطر والنوافذ.

رحمة من عنده ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ والمراد بها الوحي والنبوّة، وقد تكرر في القرآن إطلاق الرحمة على النبوّة. ثالثاً: علّمه الله من عنده علماً مباشراً بدون تعليم معلم ﴿وعلَّمنَـاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ وهذه الصفة من صفات النبوة[١] في رأي بعض العلماء، وهذا العلم هو علم الغيوب والأسرار الخفية التي لا يعلمها إلاّ الله، وهذا العلم الرباني هو ثمرة الإخلاص لله والتقوى يؤتيه الله من يشاء من عباده.

وعندما التقى موسى بالخضر سلّم عليه، «فقال الخضر: هل بأرضي من سلام[٢]؟ من أنت؟ قال: أنا موسى، قال الخضر: موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال الخضر: فما شأنك؟ قال موسى: جئت لتعلمني مما عُلِّمْتَ رُشْداً. قال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟ وأضاف الخضر قوله: «إني على عِلْمٍ من علم الله عَلَّمنيهِ لا تعلمه أنت، وأنت على عِلْمٍ من عِلْمِ الله عَلَّمَكَ الله لا أَعْلَمُهُ؛ فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال الخضر: والله ما علمي ولا علمك في جنب علم الله إلاّ كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر»[٣].

ولنرجع إلى نص القرآن: ﴿قال له موسى: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُـعَلِّمَن مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ أي هل أسير في صحبتك لتعلّمني مما علَّمك الله شيئاً من العلم أسترشد به في ديني من علم نافع وعمل صالح؟

هنا نرى أن موسى راعى جملة من الآداب عندما طلب العلم من الخضر، منها: أنه لم يورد طلبه من الخضر التعلم منه في صورة الأمر، وإنما في صورة الاستفهام، وجعل نفسه تبعاً له حيث قال: ﴿هَلْ أَتبِعُكَ﴾، ثم أضاف موسى: ﴿عَلَى أَنْ تُـعَلِّمَنِ﴾ وهذا إقرار منه بجهله واتصاف أستاذه بالعلم، وفي هذا منتهى

(١) يرى أكثر العلماء أن الخضر ليس نبيًا بل وليًا من أولياء الله.

(٢) أي من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام.

(٣) عن صحيح البخاري، باب التفسير.

التواضع. ثم أضاف موسى قوله أخيراً ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ فهو طلب العلم منه للرشد والهداية، ولا خير في علم لا رُشد فيه ولا هداية، لأن العلم قد ينقلب إلى فتنة وضلال وظلم وبغي، إذا لم تكن غايته الرشد والهداية.

ماذا كان جواب الخضر على طلب موسى مصاحبته؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ لقد استبعد الخضر استطاعة موسى الصبر وهو في صحبته على وجه التأكيد والنفي المطلق بما سيرى منه من أعمال، وأضاف الخضر قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِط بِـهِ خُبْراً﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبيّ على ما أقوم به من أمور لم يحط علمك بها، ظواهرها منكرة، وبواطنها مجهولة، والرجل الصالح لا يملك نفسه إذا رأى منكراً أن يصبر عليه؟

أجابه موسى: ﴿قال سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا اعْصِي لَكَ أمراً﴾ لقد أعطاه وعداً بالصبر معه والطاعة وعدم عصيانه.

ثم ختم الخضر وصيته لموسى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيءٍ حتى أُحْدِث لَكَ مِنْـهُ ذِكْراً﴾ أي إن اخترت يا موسى اتباعي والسير في صحبتي فلا تسألني عن شيء أعمله ولا تعترض عليه حتى أبين لك سرّه وخبره، فقبل موسى هذا الشرط مراعاة منه لأدب المتعلم مع أستاذه وحرصاً على الاستفادة منه.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى

عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

شرح المفردات

خرقها: ثقبها.

شيئاً إمراً: شيئاً عظيماً منكراً.

ولا ترهقني من أمري عسراً: لا تعسّر عليّ متابعتك ويسّرها عليّ بالإغضاء واليُسر.

نفساً زكيّة: بريئة غير جانية.

شيئاً نكراً: شيئاً منكراً، تنكره العقول.

قد بلغت من لدنّي عذراً: قد وجدت عذراً لك لفراقك إياي.

استطعما أهلها: طلبا من أهل القرية طعاماً على سبيل الضيافة.

يريد أن ينقضّ: يكاد يسقط.

فأقامه: فبناه.

تصرفات مبهمة من الخضر

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما صدر عن الخضر من تصرفات غريبة بظاهرها لم يستطع موسى القبول بها:

﴿فانْطَلَقَا حتَّى إذَا رَكِبَا في السَّفينة خَرَقَها﴾ أي فانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر فوجدا سفينة، فكلّما أصحابها، وطلبا منهم الإذن بالركوب معهم في السفينة، وعرف أصحاب السفينة الخضر فسمحوا لهما بالركوب بدون أجر. ثم إن الخضر غافل أصحاب السفينة وقلع لوحاً من ألواحها، والظاهر أنه فعل ذلك في موضع بحيث يميل قسم من السفينة في الماء ولا تغرق. لم يتمالك موسى نفسه صبراً على ما رآه وقال مستنكراً على الخضر فعله: **﴿قال: أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْراً﴾** أي أجعلت فيها ثقباً لتغرق أصحابها لقد أتيت شيئاً

عظيماً منكراً! فأجابه الخضر: ﴿قال: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ أي ألم أقل لك فيما مضى إنك لن تستطيع الصبر على مصاحبتي؟

﴿قَالَ: لا تؤاخذني بِمَا نَسِيتُ﴾ أي قال موسى معتذراً: لا تؤاخذني على نسيان وصيتك، وهذا أمر طبيعي، فإن الإنسان إذا جابهته العجائب بهرته وأدت به إلى نسيان سابق أمره. ثم أضاف موسى قوله: ﴿ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ أي ولا تكلفني عسراً ومشقة في صحبتي إياك، فموسى يلتمس بهذا القول ألاَّ يشدد عليه الخضر في صحبته بل يعامله بالتساهل والمسامحة.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ﴾ في الكلام هنا حذف للإيجاز، والتقدير: فخرجا من السفينة وانطلقا يمشيان. حتى إذا لقيا في طريقهما صبيًّا فقتله الخضر، فقال موسى مستنكراً: ﴿قالَ: أقتلت نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ أي أتقتل نفساً طاهرة بريئة من الذنوب لم تقتل أحداً حتى يُقتصّ منها، لقد فعلت فعلاً منكراً!

﴿قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ قال الخضر لموسى ما قاله له سابقاً بأنه لن يستطيع معه صبراً، ولكن الآية هنا فيها زيادة لفظة (لك) ﴿ألم أقل لك﴾ وذلك لتوكيد لومه له.

﴿قالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَن شيءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ أي قال موسى: إن سألتك عن شيء بعد الذي جرى بيني وبينك وأنكرتُ عليك ما ستفعله ففارقني ولا تصاحبني لأنك قد بلغت الغاية التي تُعذر بها في فراقي.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وتابعا سيرهما حتى وصلا إلى قرية فطلبا من أهلها طعاماً فرفضوا إطعامهما وإضافتهما.
ولا شك أن قوماً مستقرّين في قرية يأتي إليهم ضيفان مسافران ثم يطلبان الطعام منهم لحاجتهم إليه، ولكنهم يأبون مجرد إضافتهما ولو بدون طعام، إن هؤلاء القوم

قد بلغوا الغاية القصوى في اللؤم والبخل وقساوة القلب ﴿فَوَجدا فِيهَا جِداراً يُرِيدُ أن يَنقَضَّ فَأقَامَهُ﴾ وبعد هذا الرد غير اللائق من أهل القرية لهما وجدا جداراً متداعياً يوشك أن ينهار فهدمه الخضر ثم بناه ثانية ﴿قَالَ: لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً﴾ أي قال موسى للخضر: ليتك طلبت أجراً على بناء الجدار لنحصل على الطعام، فهم لم يقوموا بواجب ضيافتنا فلا ينبغي أن تحسن إليهم ببناء هذا الجدار مجاناً لهم.

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

شرح المفردات

سأنبئك: سأخبرك.

تأويل: تفسير.

غصباً: سلباً بغير حق.

يرهقهما: يغشيهما ويدفعهما.

زكاة: طهارة من السوء، أو ديناً وصلاحاً.

وأقرب رحماً: أقرب برًا ورحمة بوالديه.

يبلغا أشدهما: يبلغا قوّتهما، وهي سن البلوغ والرشد.

أسرار أفعال الخضر

وبعد أن خالف موسى عليه السلام الاتفاق الذي جرى بينه وبين الخضر ولم يتقيد به أعلن الخضر فراقه لموسى:

﴿قال: هَذَا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي هذا الإنكار منك لي، والاعتراضات المتكررة على أفعالي هي التي جعلتني أبادر إلى فراقك، ولكن قبل الفراق سأخبرك بتفسير وحكمة ما فعلت من الأمور التي خفي عليك سرّها ولم تطق صبراً على تقبّلها:

﴿أمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمسَاكِينَ يَعْمَلُون في البَحْرِ﴾ أما سبب خرقي للسفينة فلأنها كانت لمساكين ضعفاء يكتسبون بها ممن يستأجرها منهم أو يعملون بها لنقل الركاب، ولم يكن لهم من مورد غير تلك السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أن أعيبَهَا﴾ فأردت بحكم الله وإرادته أن أجعل فيها عيباً يمكن إصلاحه فيما بعد ﴿وَكانَ وَرَاءهم[1] مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ وكان رجوعهم في سيرهم يصادف المرور على ملك ظالم يستولي على كل سفينة جيدة ويأخذها من أصحابها غصباً فإذا رأى فيها عيباً تركها فيصلحها أصحابها وتسلم لهم، فكان هذا العيب في السفينة هو لصرف الملك عن الاستيلاء عليها[2].

﴿وَأمَّا الغُلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤمِنَيْنِ فَخَشِينَا أنْ يُرهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفراً﴾ أي وأما الغلام الذي قتلته[3] فكان أبواه مؤمنين صالحين فخفنا أو علمنا أن يغشي هذا الولد والديه المؤمنين طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه بهما، أو

---

(١) وراء: تأتي في اللغة أيضاً بمعنى أمام. وهناك قراءة لأبيّ بن كعب (وكان أمامهم ملك).

(٢) العبرة هنا تفيد أن الله لا يتخلى عن المساكين بل يحفظهم من عاديات الزمن ويسخّر لهم من يقوم بأمرهم والدفاع عنهم.

(٣) أشكل على بعض العلماء قتل الخضر لهذا الغلام، فقيل إنه كان بالغاً، وقد استحق القتل بكفره وقيل كان يقطع الطريق، وقد علم بذلك الخضر دون موسى فاستحق القتل لذلك.

يعديهما بدائه وهو الكفر ويضلهما بضلاله. فالخضر علم بإعلام الله إياه أن الغلام حين يبلغ سيكون كافراً ويتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما. فإنه ليس هناك فتنة أضر على الأبوين من الأبناء لأن عاطفة الحب التي يكنّها الآباء لهم وانحيازهم العاطفي لتصرفاتهم قد توردهم المهالك وهم لا يشعرون.

فهذا الولد الذي قتله الخضر فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي حيًّا لكان فيه هلاكهما وتعاستهما، فليرض المرء بقضاء الله، لأن قضاء الله للمؤمن خير له مما يحب ويرضى، وعلى الإنسان أن لا يأخذه الحزن المهلك لموت ولد له قضاء وقدراً، فقد يكون موته خيراً له ولوالديه في علم الله.

وتابع الخضر قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ فأردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولداً آخر يكون خيراً من هذا الولد الذي قتلته: ولداً ذا ديانة، وصلاح، وأقرب عطفاً ورحمة على والديه.

﴿وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يتيمَيْن في المدينَـةِ﴾ وأما الجدار الذي بنيته دون أن آخذ عليه أجراً فكان لغلامين يتيمين من أهل المدينة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أبوهُمَا صَالِحاً﴾ وكان تحت هذا الجدار كنز من المال تركه أبوهما لهما وكان رجلاً صالحاً، وقد يكون الأب وصى بغلاميه صديقه بعد موته وأخبره بموقع الكنز، واتفق أن غاب الوصي وأشرف الجدار في غيبته على السقوط، ولو سقط لانكشف الكنز ونُهب ما فيه من أموال ﴿فَأَرادَ رَبُّك أن يَبْلُغَا أشُدَّهُمَا ويستخرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ فأراد الله أن يحفظ لهما الكنز حتى يبلغا سن الرشد ويستخرجاه رحمة من ربك بهما، وتكريماً لأبيهما في ذريته لصلاحه، وهذا دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته لمن شاء الله له ذلك، وتشمل بركة عبادته لله أولاده في الدنيا ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أمْري﴾ وما رأيتني أفعله لم يكن باجتهادي وإنما فعلته بأمر الله ووحيه ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَلَيْهِ صَبْراً﴾ هذا تفسير وحكمة ما خفي عليك يا موسى مما فعلت ولم تستطع الصبر عليه.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

شرح المفردات

سأتلو عليكم منه ذكراً: سأقص عليكم منه خبراً.
مكنّا له في الأرض: أعطيناه ملكاً عظيماً وتصرفاً في الأرض كيف يشاء.
سبباً: طريقاً يوصله إلى مراده.
فأتبع سبباً: فاتبع طريقاً يوصله إلى غرضه.
تغرب في عين حمئة: تغرب في عين ذات طين أسود بحسب رأي العين.
إما أن تعذب: إما أن تعذب هؤلاء القوم بالقتل.
حُسناً: وهو الدعوة إلى الحق والهدى.
عذاباً نكراً: منكراً فظيعاً.
فله جزاء الحسنى: فله جزاء الجنة والمثوبة الحسنة.
أحطنا بما لديه خبراً: أحطنا علماً بما لديه من الجنود وآلات الحرب.

ذو القرنين

ثم ينتقل القرآن إلى الإجابة على سؤال الكفار عن ذي القرنين:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذي القرنين قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي يسألك يا محمد بعض الكفار عن نبأ ذي القرنين فقل لهم سأقص عليكم بعض أخباره بما أوحى الله

إليّ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَـهُ في الأَرْضِ﴾ وتمكين الله لإنسان من خلقه في الأرض هو إيتاؤه السلطان والقوة فيها والتصرف فيها كيف يشاء ﴿وآتَـيْـنَـاهُ مِنْ كُلِّ شيءٍ سَبَباً﴾ وأعطيناه من كل شيء أراده لبسط سلطانه طريقاً يوصله إليه من قدرة وعلم وآلة ﴿فَأَتْـبَعَ سَبَباً﴾ فاختار طريقاً وسار جهة المغرب ﴿حتى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي حتى إذا وصل إلى بلاد في أقصى الغرب بالنسبة لمن نزل عليهم القرآن «أهل الجزيرة العربية» ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَـةٍ﴾ وجد الشمس في رأي العين كأنها تغرب في مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ وبالقرب من هذه العين وجد ذو القرنين قوماً كافرين ﴿قُلْنَـا يا ذَا القَرْنَـيْنِ إمَّا أن تُـعَذِّبَ وَإمَّا أن تَـتَّخِذَ فِيهِم حُسْناً﴾ أي فألهمه الله أن يتخذ فيهم أحد أمرين: إما أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على الكفر ولم يجيبوا داعي الإيمان وإما أن يعاملهم بالحسنى إن أعلنوا إيمانهم بعد دعوتهم إلى الإيمان والهدى.

﴿قَالَ: أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُـعَذِّبُـهُ ثُمَّ يُـرَدُّ إلَى رَبِّهِ فَـيُـعَذِّبُـهُ عَذَاباً نُـكْراً﴾ أي قال لهم: أما من لم يقبل دعوتي إلى الإيمان بالله وأصر على الشرك بالله فسوف نأمر بتعذيبه في الدنيا بالقتل ثم يرجع إلى ربه بعد الموت فيعذبه عذاباً شديداً في الآخرة بنار جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَـقُولُ لَهُ مِنْ أمْرِنا يُسراً﴾ وأما من صدّق بالله ووحدانيته وعمل عملاً صالحاً فله الجزاء الحسن في الآخرة وسنعامله في الدنيا برفق ويسر ولا نكلفه أمراً يشق عليه.

﴿ثُمَّ أَتْـبَعَ سَبَباً. حَتَّى إذَا بَلَغَ مَطْلِـعَ الشَّمْـسِ﴾ أي ثم سلك طريقاً موصلاً إلى مشرق الشمس في نهاية ما وصل إليه العمران ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ أي وجد الشمس تشرق على قوم يعيشون على الفطرة الأولى لا يسترهم من حرّ الشمس ساتر من شجر وغابات كأن تكون مناطق صحراوية، أو هم عراة لا لباس لهم ولا بناء.

ويرى الشيخ محمد متولي الشعراوي أن اللباس والبناء لا يستران الشمس، فالشمس موجودة خارج المنزل، ولكن الذي يستر الشمس في أي موضع من الأوضاع هو الظلام، هو الليل، فذو القرنين وصل إلى مناطق في الأرض بعيدة لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة، وهي تنطبق على القطب الشمالي والقطب الجنوبي، فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالي مدة ستة شهور وعن القطب الجنوبي كذلك.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي كذلك فعل ذو القرنين بأهل المشرق من آمن تركه، ومن كفر قتله، والله مطلع على جميع أحواله وأحوال خلقه لا يخفى عليه شيء منها.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾

شرح المفردات

بين السدين: بين الجبلين.
من دونهما: من ورائهما.
يأجوج ومأجوج: قبيلتان كانتا تعيثان الفساد في الأرض.
خرجاً: عطاء من أموالنا.
ردماً: حاجزاً حصيناً.

زبر الحديد: قطع الحديد.
بين الصدفين: بين جانبي الجبلين.
قطراً: نحاساً مذاباً.
يظهروه: يعلوا على ظهره لارتفاعه.
نقباً: خرقاً وثقباً لصلابته وثخانته.
جعله دكاء: جعله مدكوكاً مُسوّى بالأرض.
يموج: يختلط ويضطرب.
الصور: البوق.

ذو القرنين يبني السد

ويتابع القرآن الكلام على ذي القرنين في ذكر بنائه السد:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي ثم سلك طريقاً آخر بين الشرق والغرب حتى إذا وصل بين جبلين مرتفعين، قيل هما جبلا: آذربيجان وأرمينيا **﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكَادُون يَفْقَهُون قَوْلاً﴾** أي وجد من وراء الجبلين قوماً لا يكادون يفهمون لغة غير لغتهم إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها أو بواسطة الترجمان.

﴿قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إنَّ يأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُون في الأَرْضِ﴾ أي قال القوم لذي القرنين بعد أن آنسوا فيه التقى والقوة والقدرة: يا ذا القرنين إن قبيلتي يأجوج ومأجوج يغيرون علينا فيعملون فينا قتلاً وسلباً **﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم سَدًّا﴾** فهل نعطيك جزءاً من أموالنا مكافأة لك مقابل أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا يحمينا من غاراتهم وشرّهم؟ **﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فيه رَبِّي خَيْرٌ﴾** قال ذو القرنين: ما أعطاني الله من المال والملك وما أبتغي من ثواب الله خير مما تريدون أن تبذلوه لي، وأنا سأقوم بعمل السد تبرّعاً مني لكم **﴿فَأَعِينُوني بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُم وبَيْنَهُم رَدْماً﴾** فأعينوني بكل ما تستطيعون من رجال وأدوات لأجعل بينكم وبينهم حاجزاً حصيناً فلا يستطيعون الوصول إليكم.

﴿آتوني زُبَـرَ الحديدِ﴾ أعطوني قطع الحديد، فأتوه بالكثير منها ﴿حتَّى إذا سَاوى بَـيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ والصدفان: هما جانب الجبلين، أي حتى إذا ساوى البناء بين حافتي الجبلين بقطع الحديد أوقد بينها حطباً ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّى إذا جَعَلَهُ نَاراً﴾ ثم قال للعمال انفخوا على النار بالأكيار[١] حتى إذا صار الحديد محمرًا كالنار من شدة الحرارة ﴿قَالَ: آتُوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ قال: هاتوا لي نحاساً ذائباً من كثرة غليانه أفرغه على الحديد المحمى؛ فدخل ذائب النحاس بين الحديد فالتأم ولصق بعضه ببعض ﴿فَمَا اسْطَاعُوا[٢] أنْ يَظْهَرُوهُ﴾ فما استطاعت قبيلتا يأجوج ومأجوج أن يعلوا السـد بالصعود فوقه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطاعُوا لَـهُ نَقْباً﴾ وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وسمكه.

﴿قَالَ: هذا رَحْمَةٌ مِنْ ربّي﴾ أي قال ذو القرنين لأهل تلك الديار: هذا السـد نعمة وأثر من آثار رحمة ربي إذ صار حاجزاً بينكم وبين يأجوج ومأجوج حيث يمنعهم من الإفساد في الأرض ﴿فَإذا جَاءَ وَعْدُ ربي جَعَلَـهُ دَكَّاءَ﴾ فإذا حلّ الأجل الذي عيّنه ربي بخروج يأجوج ومأجوج من وراء السدّ جعله ربي بقدرته مدكوكاً مسوّى بالأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ ربِّي حَقًّا﴾ وكان كل ما يعد به ربي حقًّا ثابتاً لا ريب في تحقُّقه.

وتم فعلاً خروج جنكيزخان وسلالته من وراء السـد (وسيأتي الكلام عليهم) فعاثوا في الأرض فساداً في الشرق ودمروا معالم الحضارة الإسلامية. وقد قالت زينب زوج النبي ﷺ: «استيقظ النبي ﷺ وهو يقول: لا إلَه إلاّ الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم[٣] يأجوج ومأجوج... قلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون قال: نعم إذا كثر الخبث»[٤].

---

(١) الأكيار: جمع كير وهو ما يستعمله الحداد لتحمية النار.

(٢) اسطاعوا: أصلها استطاعوا حذفت التاء تخفيفاً.

(٣) ردم: سدّ.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

فالمغول والتتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري هم جزء صغير من يأجوج ومأجوج، وسوف يتلوه الظهور الكلي لهم عند اقتراب قيام الساعة (أي القيامة).

﴿وتركْنَا بَعْضَهُم يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي وتركنا الناس يوم فتح السد، وخروج يأجوج ومأجوج يضطرب ويختلط بعضهم ببعض من شدة الهول والفزع. أو بمعنى: وتركنا جميع الخلائق يوم القيامة يضطربون حيارى من شدة الهلع والخوف.

وقفة عند قوله تعالى: (يموج) يُقال: ماج البحر يموج موجاً إذا اضطربت أمواجه[1]، «فكلمه يموج لا تقف عند حد استعارتها لمعنى الاضطراب، بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس، احتشاداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموّج واضطراب»[2] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ والصور هو قرن ينفخ فيه كهيئة البوق ينفخ فيه الملك إسرافيل النفخة الثانية حيث يقوم الناس أحياء بعد مماتهم لرب العالمين ﴿فَجَمَعْنَاهُم جَمْعاً﴾ أي جمعنا الخلائق لموقف الحساب على صعيد واحد لا يتخلف منهم أحد.

من هو ذو القرنين

ذهب كثير من المفسرين إلى أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني الملقب بالإسكندر الكبير الذي بلغت فتوحاته أرجاء الأرض، ولكن ما ينفي أن يكون ذلك هو أن ذا القرنين الموصوف في القرآن كان مؤمناً بالله واليوم الآخر وهو دين

---

(١) لسان العرب.

(٢) عن كتاب: من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوي.

التوحيد، وكان من صالحي عباد الله، بينما كان الإسكندر معدداً للآلهة، وسيرته يشوبها بعض المثالب كما جاء في بعض المصادر التاريخية.

ويقول تقي الدين المقريزي في كتابه المعروف بالخطط المقريزية:

«اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز قد كثر ذكره في أشعار العرب، وأن اسمه: الصعب بن ذي مراثد بن الحارث... وأنه ملك من ملوك حمير... وقد غلط من ظن أن الإسكندر بن فيليبوس هو ذو القرنين الذي بنى السد فإن لفظة (ذو) عربية وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وذاك أي إسكندر، هو رومي يوناني».

وقيل: إن ذا القرنين هو كورش أحد ملوك فارس وهو الذي أسس الأمبراطورية الإيرانية، وهو الذي أذن في رجوع اليهود من بابل إلى أورشليم، وإن ما وصفه القرآن من ذي القرنين منطبق على هذا الملك، فقد كان مؤمناً بالله على دين التوحيد عادلاً في رعيته كما جاء في بعض الروايات، وبلغت فتوحاته أقاصي الأرض والظاهر أنه بنى السد في مضيق داريال في سلسلة جبال قوقاز في جمهورية جورجيا السوفياتية الآن.

وهناك روايات تدل على وثنية كورش وتعظيمه للآلهة وإفساح المجال لعبادتها لكل الشعوب المقدسة لها[1]، ولا ندري مدى صحتها.

وقد يكون ذو القرنين غير هؤلاء الذين ورد ذكرهم لأن النص القرآني لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين، وليس من أهداف القرآن ذكر الوقائع التاريخية، وإنما المقصود هو العبرة المستفادة من قصة ذي القرنين وإعطاء مثل عن الحاكم الصالح الذي يمد يد العون للشعوب المقهورة.

وسمي ذو القرنين لأنه ملك قرني الأرض وهما المشرق والمغرب، وقيل لأنه

(١) راجع كتاب (ذو القرنين) لمحمد خير رمضان يوسف.

كان على تاجه قرنان من ذهب، وقيل لأنه كان له ضفيرتان. ويحتمل أنه لُقِّب بذي القرنين لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع لأنه ينطح أقرانه.

من هم يأجوج ومأجوج

أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح، وهذان اللفظان مأخوذان من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها وفي ذلك ما يشير إلى كثرتهم وشدتهم. ويرى بعض المؤرخين أن يأجوج هم الترـ، ومأجوج، هم المغول وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك)، وكانوا يسكنون الجزء الشمالي من آسيا، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي وتنتهي غرباً بما يلي بلاد التركستان.

وقد ذكر المؤرخون أن هذه الأمم كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها، فكثيراً ما أفسدوا في الأرض ودمروا البلدان التي فتحوها... ثم إنهم لم يزالوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن نبوة محمد ﷺ إلى أن ظهر فيهم رجل يسمى (تموجين) الذي لقّب نفسه (جنكيز خان) وقد خرج هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع للهجرة فإنه بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه أخضع الصين الشمالية أولاً، ثم ذهب إلى بلاد الإسلام فأخضع السلطان قطب الدين بن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خُوارزم، وفعل بهذه الدولة من الفظائع ما لم يُسمع بمثله في التاريخ. وجاء من بعده عدة ملوك استمروا في فتح البلدان المجاورة لهم وتدميرها، إلى أن جاء (هولاكو) فزحف على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله، فأخذ بغداد عنوة في أواسط القرن السابع للهجرة. وعرضها للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهاراً، وطرح جنوده كتب العلم في دجلة وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد[1].

---

(١) عن تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي، وتفسير الجواهر لطنطاوي جوهري باختصار.

هذا بعض ما يروى عن فتوحاتهم وفظائعهم. لا نأخذها مأخذ اليقين بأنهم هم المقصودون بيأجوج ومأجوج. ولكن نذكرها كرأي من الآراء التي قيلت في شأنهم.

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

شرح المفردات

وعرضنا جهنم: أظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها.

غطاء: غشاوة محيطة بها.

نُزُلاً: ما يقام للنزيل، وهو الضيف وهذا من باب الاستهزاء بالكافرين.

أعتدنا: هيأنا وأعددنا.

ضل سعيهم: ضاع عملهم وبطل.

فحبطت أعمالهم: بطل ثواب أعمالهم.

فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً: فلا يكون لهم عندنا لهم وزن واعتبار في ذلك اليوم.

هزواً: سخرية واستهزاء.

جنات الفردوس: أعلى الجنة وأوسطها وأفضلها.
لا يبغون عنها حِوَلا: لا يريدون تحولاً وانتقالاً عنها.
مداداً: الحبر الذي يكتب به.
مدداً: عوناً وزيادة.

مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة

ثم يبين الله مصير الكافرين يوم القيامة وما ينتظرهم من عذاب:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ للكافرين عَرْضاً﴾ أي وأظهرنا جهنم لهم حتى شاهدوها يوم جمعنا الخلائق للحساب إظهاراً هائلاً بحيث يسمعون زفيرها ﴿الذين كانت أَعْيُنُهم في غِطاءٍ عَنْ ذِكْرى﴾ أي الذين كانت أعينهم عمياً عن التبصر والنظر في ملكوت السماوات والأرض المؤدي إلى توحيد الله وذكره وتمجيده ﴿وَكَانُوا لا يستطيعون سَمْعاً﴾ وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله ومواعظه وبيانه التي بيّنها لهم في آيات القرآن الكريم.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذين كفروا أن يَتَّخِذوا عِبَادي من دُوني أَوْلِيَاءَ﴾ أفظن الذين كفروا أن اتخاذهم آلهة من عبادي الذين هم في قبضتي وتحت سلطاني، كالملائكة وعيسى، معبودات من دوني تجديهم نفعاً وتصرف عنهم العذاب؟ كلا لا تنفعهم تلك المعبودات ﴿إنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً﴾ إنا هيأنا لهم جهنم مقرًّا ينالون فيها ما يستحقون من عذاب جزاء كفرهم.

﴿قُل هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرين أَعْمَالاً﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكافرين: هل أخبركم بأشد الناس خسراناً لأعمالهم يوم القيامة وحرماناً من ثوابها؟ ﴿الّذين ضَلَّ سَعْيُهُم في الحَياةِ الدُّنْيَا﴾ أي الذين لم يكن عملهم على هدى واستقامة، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به فأشركوا بربهم وابتدعوا في دينهم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُون أَنَّهُم يُحْسِنُون صُنْعاً﴾ وهم يظنون أنهم يحسنون في أفعالهم، بينما هي في الحقيقة توجب المقت والسخط من الله ﴿أُولئِكَ الَّذين كَفَروا بآيَاتِ رَبِّهم وَلِقَائِهِ﴾ أي أولئك الذين

كفروا بحجج ربهم الدالة على وحدانيته، وكفروا بآيات القرآن المنزلة من عنده ولم يقروا بأنها من عند الله ولم يعتقدوا بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ﴾ فبطلت أعمالهم فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها في الآخرة ﴿فَلا نُقيمُ لَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾ فلا يقام وزن لأعمالهم لأنها غير مقبولة منه سبحانه.

وهكذا نرى مئات الملايين من البشر يدينون بأديان شتى ويرهقون أنفسهم بأداء شعائرها ولكن عباداتهم غير مقبولة عند الله لما خالطها من معتقدات باطلة كالشرك بالله، حيث حذر الله منه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

فكل من يدعي الألوهية لغير الله فهو مشرك، وكل من يتوجه بالدعاء لغير الله لكشف الضرّ عنه فهو مشرك بالله. والشرك محبط للأعمال ومبطلها وليس لها ثواب ينفع أصحابها كما جاء في القرآن حيث خاطب الله رسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٥].

﴿ذَلِكَ جَزَاؤهم جَهَنَّمُ بِمَا كَفَروا واتَّخذُوا آياتي وَرُسُلي هُزواً﴾ أي ذلك الذي ذَكَرَهُ الله وفصّله من أنواع الوعيد هو جزاؤهم على أعمالهم الباطلة وهو عذاب جهنم وذلك بسبب كفرهم واتخاذهم آيات القرآن ورسله هزواً وسخرية.

وبعد أن بين القرآن مصير الكافرين في الآخرة أتبع ذلك ببيان مصير المؤمنين:

﴿إنَّ الَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَانت لَهُم جَنَّاتُ الفِرْدَوسِ نُـزُلاً﴾ أي إن الذين صدّقوا بوحدانية الله ورسوله محمد ﷺ وعملوا بطاعة الله وما أمرهم به من صالح الأعمال كانت لهم جنات الفردوس منزلاً مُعَدًّا لهم. والفردوس أعلى درجات الجنة، وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى ومنه تفجّر الأنهار».

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ مقيمين فيها أبداً منعمين لا يبغون عنها بديلاً ولا يختارون غيرها.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قل يا محمد للناس: إن علم الله محيط بكل شيء، ولو كان ماء البحر حبراً، والشجر كله أقلام[1] وجلس الكتاب يسجلون بتلك الأقلام كلمات الله الدالة على علمه وصفاته، وعجائب صنعه وقدرته، فماذا تكون النتيجة؟ ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ أي لنفد ماء البحر قبل أن يفرغوا من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء زيادة فيه لنفد أيضاً قبل أن تنفد كلمات الله.

ثم يأتي ختام هذه السورة متناغماً مع أولها من حيث تقرير وحدانية الله وإنذار الذين ادعوا أن لله ولداً:

﴿قُلْ إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إلَيَّ أنَّمَا إلهكُم إلهٌ واحدٌ﴾ أي قل يا محمد لقومك بأنك بشر مثلهم ليس فيك صفة الألوهية، وقل لهم: إن الله أوحى إليّ أن لا إلّه في الكون إلاّ الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿فَمَنْ كَان يَرْجُو لِقَاءَ ربِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ ربِّه أحداً﴾.

أي فمن كان يرجو لقاء ربه وهو راضٍ عنه طامعاً في ثوابه، ناجياً من عذابه فليتقرب إليه بصالح الأعمال، وليجتنب الشرك بعبادة الله.

والشرك نوعان: الشرك الأكبر كعبادة الأوثان وعبادة الأنبياء وغيرهم مع عبادة الله. والشرك الأصغر: وهو أن يعبد الله رياء وسمعة وشهرة بين الناس لا يبتغي بعبادته وجه الله وحده بل يبتغي الثناء من الناس لمنفعة له من ذلك.

---

(١) وهذا ما ذكره القرآن: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

تعريف بسورة مريم

سورة مريم من السُّوَر المكية «أي التي نزلت بمكة» وغرضها تقرير وحدانية الله وتنزيهه عن الولد، كما تقرّر عقيدة البعث والجزاء بعد الموت. وقد سُميت هذه السورة سورة مريم لورود قصة مريم فيها.

وتعرض هذه السورة فيما تعرض قصص بعض الأنبياء مبتدئة بقصة النبي زكريا عليه السلام الذي كان شيخاً هرماً، وكانت امرأته عاقراً، فسأل الله أن يهبه ولداً ليخلفه في قومه بالدعوة إلى الله بعد وفاته، لأنه لم ير بين أقربائه من يصلح لذلك، فاستجاب الله لدعائه ووهبه ولداً اسمه يحيى فكانت ولادته من أب هرم وأم عقيم معجزة خص الله بها زكريا.

ثم تعرض السورة قصة مريم حيث جاءها الملك جبريل ونفخ في صدرها فحملت بعيسى عليه السلام. وبعد ولادته خرجت على قومها وهي تحمله فكان التأنيب والاتهام لها بالفاحشة فالتزمت الصمت وأشارت إليهم بإلهام من الله أن يكلموا وليدها، فأنطق الله عيسى وهو رضيع في المهد مبرئاً أمه. فكانت ولادته بدون أب معجزة، ونطقه في المهد معجزة أخرى من معجزات الله سبحانه خص بها عيسى عليه السلام.

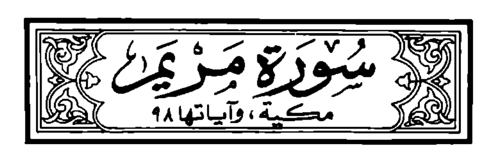
ثم تأتي بعد ذلك قصة النبي إبراهيم عليه السلام حيث وعظ أباه ليترك عبادة الأصنام بأسلوب يسيل أدباً ورقة وعطفاً على والده، فما كان من الأب إلاّ أن قابل ابنه بالغلظة والجفوة والتهديد.

ثم تذكر السورة موسى عليه السلام وما كان عليه من إخلاص القلب لله، وتذكر إسماعيل عليه السلام وما كان يتصف به من صدق الوعد وأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

كما تذكر إدريس عليه السلام وما كان عليه من بالغ الصدق مع ربه ومع الناس.

وفي السورة ردّ على المشركين الذين ينكرون البعث، كما تعرض الدلائل على حدوثه، مع عرض بعض مشاهد القيامة وأحوال المشركين حيث يُعذبون بنار جهنم.

وتختتم السورة بالتهديد والوعيد لمن يدعي بأن لله ولداً مبينة فظاعة هذا الادعاء الباطل الذي تكاد السماوات أن يتشققن، والأرض أن تنخسف، والجبال أن تنهدم لشدة نكران هذا القول الباطل بأن لله ولداً.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ ﴾

شرح المفردات

نداءً خفيًا: دعاء سريًا لم يسمعه أحد.

وهن العظم: ضعف العظم.

اشتعل الرأس شيباً: انتشر الشيب في الرأس.

شقيًا: ولم أكن محروماً ضائع المسعى.

خفتُ الموالي من ورائي: خفت الأقارب وبني العم من بعد موتي أن يضيعوا الدين.

لَـدُنْك: عندك.

وَلـيًا: ابناً من صلبي.

ويرث من آل يعقوب: أي يرثهم في العلم والفقه في الدين والمُلْك.

رضيًا: مرضياً في أخلاقه وأفعاله.

زكريا يسأل الله أن يرزقه ولداً

تبتدىء هذه السورة بالكلام على زكريا عليه السلام:

﴿كَهيعَصَ[1]. ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيًا﴾ أي هذا حديثٌ وقصة لرحمة ربك التي شملت عبده زكريا.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ النداء هنا بمعنى الدعاء، وقد دعا زكريا ربه سرًّا في جوف الليل، والسبب في دعائه خفية عن الناس لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿قَالَ: ربِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي﴾ أي قال في دعائه: إني ضَعُفَ العظم مني، وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وقوامه، وضعف العظم كناية عن الهرم والتقدم في السنّ ﴿وَاشْتَعَلَ الرأْسُ شَيْباً﴾ والاشتعال: انتشار شعاع النار، وهنا استعارة تبرز بلاغة القرآن، فالاشتعال خاص بالنار ولكنه استعار النار للشيب حيث ينتشر في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يشمله فكأن الشيب بمنزلة النار التي تشتعل في الحطب في دأب واستمرار حتى تأتي عليه ويصبح رماداً أبيض، والشبه واضح بين ضوء النار والرماد وبياض الشيب ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربِّ شَقِيًّا﴾ ولم تكن لتخيب دعائي إذا دعوتك في أي وقت من الأوقات، بل عهدتك كلما دعوتك استجبت لي دعائي ﴿وَإِنِّي خِفْتُ المَوالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ والموالي هنا الأقارب وبنو العم الذين يلونه في النسب. ومعنى: من ورائي، أي من بعد موتي، أي أن زكريا خاف أن يخلفه أقاربه بعد موته في الحكم وإمامة الناس ـ وكانوا من شرار بني إسرائيل ـ وكان خوفه أن يضيّعوا

---

(١) كهيعص: قيل إن كل حرف يرمز إلى معنى خاص أي: الله كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق في وعده. وقيل: كهيعص اسم من أسماء الله تعالى، وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، وقيل: هو اسم للسورة، وقيل: إن هذه الحروف هي لتنبيه الكفار إلى أن القرآن ألّفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلمات العرب فلم ينزل القرآن بكلمات غريبة عنهم ومع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فعجزهم هذا دليل على أن القرآن منزّل من عند الله. وقيل: إن هذه الأحرف هي سر ولا يعلمها إلاّ الله.

الدين، ويهملوا القيام بشعائره ﴿وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً﴾ وكانت زوجتي عقيماً لا تلد ﴿فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وليًّا﴾ فارزقني من عندك ولداً يخلفني في قومي ﴿يرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يرثني في نبوتي وعلمي ويرث من آل يعقوب الملك، فأجابه الله إلى طلبه وأورثه النبوة والعلم دون الملك ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ واجعل يا رب هذا الولد الذي تهبه لي مُرضِياً في أخلاقه وأفعاله عندي وعند الناس ورجلاً صالحاً ترضى عنه.

هذه الآية فيها إيحاء للمؤمن أن يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً، وأن يحرص على تربية أبنائه على تقوى الله والصلاح، فالولد الصالح ذُخْرٌ لوالديه في الحياة وبعد الممات. وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث»، وذكر من ضمنها: «ولد صالح يدعو له»[1].

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥ ﴾

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

شرح المفردات

لم نجعل له من قبل سميًا: لم يُسمَّ باسم يحيى قبله أحد.

بلغت من الكبر عتيًا: بلغت نهاية العمر.

اجعل لي آية: اجعل لي علامة.

سويًا: سليماً خالياً من العلل.

المحراب: المصلّى أو الغرفة التي يُتعبّد فيها.

فأوحى إليهم: أومأ برأسه أو أشار بيديه.

سبّحوا بُكْرةً وعشيًا: صلّوا أوائل النهار وأواخره.

وآتيناه الحكم: وأعطيناه الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين.

وحنَاناً من لَدُنَّا: وآتيناه رحمة ورقة قلب.

وبرًا بوالديه: محسناً إليهما غير عاقٍّ.

جبّاراً عصيًا: متكبراً مخالفاً أمر ربه.

البشرى لزكريا بولد اسمه يحيى

استجاب الله دعاء نبيه زكريا وبشّره بغلام على لسان ملائكته:

﴿يا زكريَّا إنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي أن اسم يحيى لم يُسمَّ به أحد من قَبْلُ بهذا الاسم، وهذه خاصية له حيث كانت تسميته مباشرة من الله، وقد قيل: إن معنى تسميته يحيى: إن الله أحيا قلبه بالإيمان والطاعة فلم يعص ربه.

تعجب زكريا من هذه البشرى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وكانت امرأتي عَاقِراً﴾ أي قال: كيف يكون لي يا رب ولد وزوجتي عقيم لا تلد ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وقد بلغت الغاية في كِبَرِ السنّ وضعف العظم واليباس في جسمي ﴿قَالَ: كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي أوحى الله إليه: إن الأمر كما بُشِّرتَ به، وإن منْحَكَ الولد مع كِبَرِ سنِّك وعُقْمِ زوجتك هو هيّن عليَّ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ

تَكُ شَيْئاً﴾ وقد خلقتك يا زكريا من قبل أن أُوجِدَ لك الغلام الذي طلبته وذلك يوم خلقت آدم وجعلتك من نسله ولم تك إذ ذاك شيئاً موجوداً.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي قال زكريا: يا رب اجعل لي علامة تدل على حصول ما بشرتني به من الولد ﴿قَالَ آيَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي قال الله تعالى: علامتك أن ينحبس لسانك عن الكلام فلا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويّ الخلق صحيح الجسم سليم الحواس ليست بك عاهة الخرس.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ﴾ فخرج زكريا على قومه من مصلّاه في الوقت الذي حملت فيه امرأته بيحيى، وهو منعقد اللسان لا يستطيع الكلام ﴿فَأَوْحَى إلَيْهِم أن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فأومأ برأسه، أو أشار بيديه أن صلّوا لله صباحاً ومساء. والتسبيح كما يكون بمعنى الصلاة يكون أيضاً بمعنى تنزيه الله عن النقصان والشريك وتقديسه وتعظيمه.

ولد يحيى عليه السلام وترعرع ولمّا بلغ مبلغ الصبا أوحى الله إليه: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي خذ التوراة بجد واجتهاد، واعمل بما فيها، وخطاب الله له إيذان بنبوته ﴿وآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وأعطاه الله الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين وهو صبي، يروى أن عمره آنذاك كان سبع سنين ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ الحنان: الرحمة والشفقة والعطف، أي أعطاه الله رحمة كائنة من عنده وتعطفاً منه عليه، أو بمعنى: أعطاه رحمة في قلبه يتحنن بها على الناس، وشفقة على والديه ﴿وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ كما جعله الله طاهراً من الذنوب والآثام متجنباً للمعاصي مطيعاً له لم يعمل خطيئة ما ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي مطيعاً لهما رفيقاً بهما، محسناً إليهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾ المراد وصفه بالتواضع ولين الجانب فلم يكن متكبراً متطاولاً على الخلق، ولم يكن مخالفاً أمر الله عز وجل عاصياً له ﴿وَسَلامٌ

عَلَيه يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يموتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي أمان من الله له يوم ولد من أن يناله الشيطان بوساوسه كما ينال سائر بني آدم، وأمان من الله عليه يوم يموت من وحشة فراق الدنيا أو من عذاب القبر، وأمان من الله له من أهوال يوم القيامة وعذاب النار.

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ ﴾

شرح المفردات

انتبذت: اعتزلت وانفردت.

مكاناً شرقيًّا: أتت مكاناً شرقي بيت المقدس اختلت فيه للعبادة.

فاتخذت من دونهم حجاباً: جعلت بينها وبين الناس حجاباً يسترها عنهم.

رُوحنا: هو الملك جبريل عليه السلام.

بشراً سويًّا: إنساناً تام الخلق.

غلاماً زكيًّا: ولداً طاهراً من كل ما يدنس البشر نامياً على الخير والبركة.

ولم يمسسني بشر: ولم يمسني بشر بنكاح أصلاً.

بغيًّا: زانية.

قصيًّا: بعيداً.

قصة مريم

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر قصة مريم وفيها من الغرائب والمعجزات ما يفوق معجزة ولادة يحيى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ أي واذكر يا محمد ما في القرآن من قصة مريم ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا﴾ أي حين اعتزلت وانفردت من أهلها وأتت مكاناً شرقيًا من بيت المقدس أو من دارها ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِم حِجَاباً﴾ فاتخذت من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس لتتفرغ للعبادة ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ والروح الذي أرسله الله لمريم هو الملك جبريل عليه السلام، وسمّي روحاً لأنه روحاني، وإضافة الروح إلى الله للتشريف. وقيل: أطلق الروح على جبريل تشبيهاً له بالروح لأنه سبب لحياة الدين كما أن الروح سبب لحياة البدن، أو سماه الله بروحه على المجاز محبة له وقرباً كقولك: أنت روحي لمن تحب ﴿فَتَمَثَّلَ[1] لَهَا بَشَراً سَوِيًّا﴾ فظهر لها جبريل على صورة شاب حسن الوجه تام الخلق، كامل البنية وذلك لتستأنس بكلامه ولا تنفر منه، إذ لو ظهر لها بصورته الأصلية الملكية لنفرت منه خوفاً ولم تقدر على استماع كلامه.

ظنت مريم أن هذا الشخص الذي جاءها يريدها بسوء فالتجأت إلى الله ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بالرَّحْمَنِ[2] مِنْكَ﴾ قالت: أستجير بالله وألتجيء إليه منك من أن تنال مني ما حرّمه الله، واستعاذتها بالله منه تدل على عفافها وطهرها وورعها، ثم أضافت

---

(١) الملائكة لها القدرة على التمثل بصورة البشر، وقد كان الملك جبريل يتمثّل لمحمد ﷺ على هيئة أحد صحابته وهو دحية الكلبي، كما تمثلت الملائكة بصورة فتيان حسان عندما ذهبوا إلى لوط عليه السلام.

(٢) الرحمن: صفة من صفات الله، ولا يطلق الرحمن إلاّ على الله، ومعناه: الذي وسع كل شيء رحمة، ومريم ذكرت هذه الصفة للمبالغة في الاستعاذة بالله وطلب رحمته.

قائلة: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنت ممن يخاف الله ويتقيه فلا تتعرض لي بالشر ولا تمسني بسوء.

ولمّا رأى جبريل ما أصاب مريم من الخوف والذعر كشف لها عن حقيقته: ﴿قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ أي إنني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وإنما أنا رسول من عند ربك أرسلني إليك لأهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب. وقد أسند جبريل هبة الغلام إلى نفسه من حيث إن الله وهب الغلام لمريم بواسطته، ولكونه منفّذاً لهذه الهبة، ويجوز أن يكون ضمير ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ راجعاً إلى الله ويكون جبريل حاكياً لها كلام ربها.

تعجبت مريم مما سمعت ﴿قَالَتْ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام ولم يمسني رجل بنكاح حلال ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ولم أكن زانية ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي قال لها جبريل: الأمر كما تقولين من أنك لم يمسسك بشر ولست بزانية ولكن ربك قال: خَلْقُ هذا الغلام هو هيّن عليه، وقد وهبه لك من غير زوج ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ وقال الله: لنجعل خلق عيسى كذلك دلالة على قدرتنا من حيث إيجادنا إياه من غير أب، كما خلقنا آدم من غير أب ولا أم ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ ولنجعل عيسى رحمة منا لمن آمن به واهتدى بهديه ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ وكان خلق عيسى أمراً قد قضيناه وحكمنا بوقوعه في سابق الأزل.

نفخ جبريل في جيب[1] درعها[2]، أي من جهة صدرها، أو نفخ في كمها أو في فمها، فوصلت النفخة إلى الرحم فحملت بعيسى عليه السلام ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي لمّا صارت حاملاً اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً عن قومها فراراً من تعيير قومها بحَبَلٍ من غير زوج.

---

(١) الجيب: فتحة القميص الذي يدخل منه الرأس عند لبسه.
(٢) الدرع: قميص تلبسه المرأة.

ولمّا حملت بعيسى عليه السلام كان معها في المسجد رجل صالح من أقربائها يخدم معها في البيت المقدّس اسمه يوسف النجار، ويقال إنه خطيبها، فلما رأى علامة الحبل فيها أنكر ذلك من أمرها، ثم صرف شكه من قلبه لما يعلم من براءتها وعفتها ودينها وعبادتها. . . ولكنه قال لها: قد وقع في نفسي شيء من أمرك وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري، فقالت مريم: قل قولاً جميلاً، فقال: هل يكون شجر من غير حَب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه. أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر. أما هل يكون ولد من غير أب فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فلمّا قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله تعالى وزالت التهمة عن قلبه ثم صار يوسف ينوب عنها في خدمة المسجد لغلبة الضعف عليها بسبب الحمل.

ولمّا دنا أوان الولادة أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك فإنهم إن ظفروا بك عيّروك وقتلوا ولدك فخرجت من المدينة إلى قرية يقال لها بيت لحم.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

شرح المفردات

فَـأجاءها المخاض: ألجأها وجع الولادة واضطرها.
نسـياً منسـيًّا: شيئاً تافهاً من شأنه أن ينسى ولا يخطر ببال.
سريًّا: جدول ماء.
رُطَباً: ثمر النخل إذا نضج.
جنيًّا: المقطوف طريًّا.
وقرّي عيناً: وطيبي نفساً وابعدي عنك الهم والحزن.
إنسيًّا: إنساناً.
لقد جئت شيئاً فريًّا: لقد فعلت أمراً منكراً.
بغيًّا: زانية.

ولادة عيسى عليه السلام

ولمّا آن وقت ولادة مريم ووجدت ما تجده المرأة من آلام الطلق **﴿فَـأَجاءَهَا المخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾** أي ألجأها وجع الولادة إلى جذع نخلة لتعتمد عليه وكان يابساً فاخضرّ رأسه وأثمر لوقته. وأمام آلام الوضع **﴿قَالَتْ يا ليْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾** أي يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه **﴿وَكُنْتُ نَسْياً منسِيًّا﴾** وكنت شيئاً متروكاً لا يُعرف ولا يُذكر ولم أكن في الأرض شيئاً قط.

لقد أيقنت مريم أنها ستعيّر بهذا الولد وأن الناس لن يصدّقوها فيما حصل لها، فبعد أن كانت في نظرهم ناسكة طاهرة ستصبح زانية عاهرة، فلهذا تمنت أنها لم تكن في الأرض شيئاً قط.

ووسط هذه المحنة الصعبة سمعت مريم صوتاً يناديها: **﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ألاَّ تَحْزَني قَدْ جَعَلَ رَبُّـكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾** أي فناداها المولود عيسى من تحتها أن لا تحزني يا أماه قد جعل ربك تحتك جدولاً من الماء، وكان قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم. وقيل إن الذي ناداها هو الملك جبريل وكان في بقعة من الأرض أخفض من

البقعة التي كانت عليها ﴿وهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي حركي جذع النخلة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطباً جنيًّا﴾ تساقط: أي تتساقط فأدغم التاء في السين، والرطب: ثمر النخل إذا نضج وقبل أن يصير تمراً. ومعنى جنيًّا: ثمراً طريًّا لم ييبس ولم يجفّ ولم يبعد عن يدي مجتنيه. وهذه آية أخرى لمريم حيث رزقها الله بالرطب في غير أوانه، كما أن في ذلك توجيهاً في اتخاذ الأسباب لتحصيل الرزق حيث أُمرت بهز جذع النخلة، ولم يتساقط الرطب عليها بدون أن تهزّ جذع النخلة.

هذا وقد ثبت علميًّا أن البلح الرطب يحتوي على المواد الرئيسية التي يحتاجها الجسم في صورة مركزة سهلة الهضم، وأنه بذلك يناسب النفساء، فإذا عسرت الولادة لم يكن للمرأة خير من الرطب.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾ فكلي من ذلك الرطب، واشربي من ذلك الماء وطيبي نفساً، وابعدي عنك الأحزان ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ فإذا رأيت إنساناً يسألك عن أمرك وأمر ولدك ﴿فَقُولِي إِنِي نَذَرْتُ للرحمٰن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي فقولي إشارة لا كلاماً إنك نذرت لله الصوم عن الكلام ولن تتحدثي اليوم إلى إنسان قط.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ فجاءت مريم إلى أهلها وهي تحمل الطفل عيسى ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾ أي قالوا لها في دهشة واستنكار: لقد فعلت أمراً فظيعاً منكراً، متهمين إياها بالفاحشة، ثم زادوا تأكيداً في توبيخها: ﴿يَا أُخْتَ هارونَ﴾ أي يا من أنت من نسل النبي هارون، وقيل المراد بهارون هنا رجل صالح من بني إسرائيل، أي يا من كنا نراك شبيهة بهارون في العبادة والصلاح[1] ﴿مَا كَانَ

---

(١) أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون (يا أخت هارون) وموسى وهارون قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله، فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟ وهذا يرشد إلى أن هارون هو رجل صالح كان في زمان مريم.

أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ وما كانت أمك زانية، وهذا تنبيه على أن الفاحشة لا تصدر من ذرية الصالحين.

وما ذكره القرآن على لسان أهل مريم هو بيان لنظرية الوراثة وأثرها في النسل وهي من المسلَّمات في علم سلالات البشر.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

شرح المفردات

المهد: الفراش يهيأ للصبي ليرقد فيه وينام.

آتاني الكتاب: سينزل عليّ كتاباً من عند الله.

وبرًّا بوالدتي: محسناً إليها ومكرماً.

جبّاراً: متكبراً.

يمترون: يشكّون أو يتجادلون بالباطل.

إذا قضى أمراً: إذا أراد أن يحدث أمراً.

أسْمِعْ بهم وأبْصر: أي ما أسمعهم وما أبصرهم يوم القيامة.

يوم الحسرة: يوم القيامة.

عيسى ينطق في المهد

وبعد اتهام قوم مريم إياها بالسوء عند رؤيتهم إياها تحمل طفلها، وبخاصة أنها لم يكن لها زوج، ألهم الله مريم أن تشير إلى طفلها ليكلموه ويجيب على اتهاماتهم لها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ فأشارت إلى طفلها عيسى أن كلِّموه، والظاهر أنها حينئذ بيّنت لهم أنها نذرت الصوم عن الكلام ﴿قالوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب، أي كيف نكلم صبياً رضيعاً في حضن أمه لا يعقل ولا يستطيع الكلام؟

هنا تظهر المعجزة حيث أنطق الله عيسى بتبرئة أمه، وبيان نبوته المستقبلية بالآيات التالية:

﴿قال إني عَبْدُ اللَّهِ﴾ هذا أول ما نطق به عيسى عليه السلام وهو الاعتراف بعبوديته لله، ومن كان عبداً لله لا يُتخذ إلَهاً من دونه، وهذا ردّ على من أسبغ صفة الألوهية عليه، وأضاف عيسى قائلاً ﴿آتاني الكتاب وَجَعَلني نَبِيًّا﴾ أي قضى ربي فيما قضى بإعطائي في مستقبل الأيام الإنجيل والنبوة. وهذا القول براءة لأمه لأن الله لا يصطفي لنبوته أولاد سفاح ﴿وَجَعَلَنِي مُبَاركاً أينما كُنْتُ﴾ وجعلني معلماً للخير، نفّاعاً للعباد حيثما كنت وفي أي مكان نزلت ﴿وَأَوْصَانِي بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حيًّا﴾ وأمرني بإقامة الصلاة، ومن يصلي لإلّه فليس بإله، كما أمرني بإيتاء زكاة المال للمحتاجين من عباد الله ما دمت على قيد الحياة، وفي هذا دلالة بينة على أن الإنسان ما دام حيًّا لا تسقط عنه التكاليف الشرعية والعبادات. وما أمره الله بالصلاة والزكاة لا يدل على أدائهما في الحال بل بعد بلوغه سن التكليف، هذا وكل ما نطق

به عيسى عليه السلام هو الإخبار عن أمور سبق في قضاء الله أنها ستقع ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ كما أمرني بالإحسان إلى والدتي وأن أكرّمها وأعظّمها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ ولم يجعلني متكبراً على الناس متعالياً عليهم، ولا شقيًّا بمعصية الله.

﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ وأمان من الله لي من أن ينالني الشيطان بمكروه يوم ولدت ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ وأمان من الله لي من شدائد الموت وما بعده من عذاب القبر ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وأمان من الله لي من أهوال يوم القيامة ومن عذاب النار، وهذا بيان بأن عيسى سيموت ثم يُبعث حيًّا، وأنه بشر كسائر البشر خصه الله بالنبوة وليس إلّهاً لأن الإلّه الحق حي لا يموت أبداً.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ أي ذلك الموصوف بتلك الصفات هو عيسى ابن مريم وهو قول الحق في شأنه ﴿الَّذي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ الذي يتنازع فيه المتنازعون، ويشك في أمر نبوّته الشاكّون، فقالت اليهود: هو ساحر وكذّبوا نبوّته، وقالت النصارى: ابن الله ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي ما صح ولا استقام في العقل أن يتخذ الله ولداً ﴿سُبْحانه﴾ تنزه الله وتقدس عن اتخاذ الولد ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فإنَّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إذا قضى الله خلق شيء نفذت إرادته لا محالة بلفظة «كن» فيتحقق في الوجود حادثاً كائناً. وعلى هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. فإذا كان خلق عيسى بدون أب، فخلق آدم أعظم لأنه خُلق بدون أب ولا أم.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُم فاعْبُدُوهُ﴾ الكلام هنا لعيسى عليه السلام، أي إن الله هو ربي وربكم لا شريك له ولا رب سواه، وهو وحده المدبر للخلائق فاعبدوه وحده ﴿هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا دين قويم لا اعوجاج فيه.

﴿فاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِم﴾ فاختلفت الفرق من أهل الكتاب «أي اليهود

والنصارى» في شأن عيسى فكذّبه اليهود، وافترقت النصارى في شأنه وصاروا أحزاباً متفرقين، فقالت النسطورية منهم هو ابن الله، وقالت الملكانية هو ثالث ثلاثة، وقالت اليعقوبية هو الله تعالى، كما أن هناك فِرَقاً أخرى ﴿فَوَيْلٌ للذين كَفَروا من مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فويل: كلمة تهديد تفيد تشديد العذاب للذين كفروا وادعوا بأن عيسى إلَه وابن الله حيث يشاهدون يوماً عظيم الهول وهو يوم القيامة ﴿أَسْمِعْ بِهِم وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي ما أشد سمعهم وأقوى بصرهم بالحق يوم يلقون الله بعد أن كانوا في الدنيا صمًّا عن سماع كلمة الحق، وعمياً عن رؤية طريق الرشاد ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي لكنهم اليوم في الدنيا بظلمهم أنفسهم بالكفر هم في ضلال ظاهر لا يخفى.

﴿وَأَنْذِرْهُم يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ وخوّف ـ يا محمد ـ هؤلاء الظالمين من يوم القيامة، يوم يتحسرون ويندمون على ما فعلوا في دنياهم، أما المسيء فعلى إساءته، وأما المحسن فسيتحسر على قلة إحسانه وأنه لم يزدد منه.

وفي سياق هذه الآية رُوي عن النبي ﷺ قوله: يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[١] فينادي منادٍ: يا أهل الجنة! فيشرئبُّون[٢] وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبح[٣]. ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت[٤]. ثم قرأ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة. . .﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿إذ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي إذ يقضي الله يوم القيامة بين الخلق: فريق في نعيم الجنة، وفريق في عذاب النار ﴿وَهُمْ في غَفْلَةٍ﴾ والمشركون في دنياهم

(١) الأملح: ما كان البياض فيه أكثر.
(٢) فيشرئبون: يمدون أعناقهم لينظروا.
(٣) فيذبح: المقصود منه التمثيل وبيان أنه لا يموت أحد بعد ذلك.
(٤) أخرجه البخاري.

غافلون عما هم مقبلون عليه من حساب وعقاب ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم لا يصدّقون بالقيامة والبعث.

﴿إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فالله هو الوارث للأرض ومن عليها من الخلق حيث يموتون جميعاً ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴿وإلَيْنَا يُرْجَعونَ﴾ وإلى الله مصيرهم جميعاً فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

شرح المفردات

صدّيقاً: بالغ الصدق في أقواله وأفعاله.

أهدك صراطاً سويًّا: أرشدك طريقاً مستقيماً.

عصيًّا: كثير العصيان.

فتكون للشيطان وليًّا: فتكون ناصراً وقريناً له في النار.

أراغب: أمعرض.
اهجرني مليًّا: فارقني زماناً طويلاً.
أعتزلكم: أفارقكم.
وأدعو ربي: وأعبد ربي.
لسان صدق عليًّا: ثناء حسناً رفيع القدر على ألسنة الناس.

إبراهيم يعظ أباه بترك عبادة الأصنام

وبعد أن بيّن القرآن بطلان الزعم بألوهية عيسى عليه السلام، انتقل إلى الرد على المشركين العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام، وقد جاء الرد على لسان النبي إبراهيم عليه السلام، حيث يحكي لنا القرآن كيف وعظ أباه بترك عبادة الأصنام.

والموعظة التي تأتي على لسان إبراهيم عليه السلام لها أثرها النافذ المؤثر في قلوب العرب فهو أبوهم (أي جدهم) لأن العرب من نسل ابنه إسماعيل.

هذا وقد كان العرب يحتجون على عبادتهم للأصنام بأنهم يقلدون آباءهم في ذلك بما حكى القرآن على لسانهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ[1] وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فبيّن القرآن بأن أشرف آبائهم وأجلهم قدراً وهو إبراهيم عليه السلام ترك دين أبيه القائم على عبادة الأصنام وأبطل عبادتها بالبرهان والدليل المفحم. اقرأ قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إبراهيم﴾ أي واذكر يا محمد ما في القرآن من قصة إبراهيم وبلّغ قومك ما كان من خبره ﴿إنَّه كَانَ صِدِّيقاً نبيّاً﴾ أي إنه كان ملازماً للصدق في كل أفعاله وأقواله لم يكذب قط، والصدّيق من أبنية المبالغة في اللغة، والمراد كثرة صدقه في كل أحواله، كما أنه كان نبيًّا، وملاك أمر النبوة هو الصدق.

---

(١) أمة: ملة ودين.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيه: يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ﴾ لقد نادى إبراهيم أباه بلفظ (يا أبت) استعطافاً له وتودداً إليه، ثم استفهم عن السبب الذي حمل أباه على عبادة الأصنام بقوله: لماذا تعبد هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تميز من يطيعها ممن يعصيها؟ وإذا كانت الأصنام لا تسمع دعاء الداعي فأي منفعة تجنى من عبادتها، وإذا كانت لا تبصر من يتقرب إليها، فأي منفعة من التقرب إليها؟ ﴿وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ أي والذي تعبده من دون الله لا يقدر على أن ينفعك بشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿يَا أَبَتِ إنّي قَدْ جَاءني مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يأْتِكَ﴾ لم يصف إبراهيم نفسه بالعلم الفائق حتى لا يظهر منه العلو على والده فينفر منه، وإنما أثبت لنفسه علماً لم يصل إلى سمع أبيه ﴿فاتّبِعْني أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا﴾ أي اتبع ما أعلمه في شأن ترك عبادة الأصنام لأرشدك إلى طريق مستقيم يوصلك إلى الحق ويجنبك الضلال.

﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيطانَ﴾ أي إن عبادتك للأصنام هي عبادة للشيطان فهو الذي يغريك ويدفعك إلى عبادتها ﴿إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للرحمٰن عَصِيًّا﴾ إنه كان عاصياً لربه، ومن جملة عصيانه إباؤه السجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، فطرده الله من رحمته، ومن المعلوم أن طاعة الفاسقين تورث النقم وزوال النعم.

وتابع إبراهيم وعظه لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إنِّي أَخَافُ أن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحمٰن﴾ أي إني أخشى إن أصررت على الكفر أن يصيبك عذاب من الله. هنا يراعي إبراهيم حسن الأدب في تحذير والده من عبادة الأصنام حيث لم يصرّح له بأن العذاب لاصق به ولكنه قال: ﴿أخاف أن يمسّك﴾. كما وصف إبراهيم الله سبحانه بصفة (الرحمن) ومعناه: الذي وسعت رحمته كل شيء وفي هذا الوصف دعوة إلى عبادة الله وحده للفوز برحمته. وينهي إبراهيم وعظه لأبيه بقوله: ﴿فَتَكُونَ للشَّيْطَانِ وليًّا﴾ أي إذا عبدت الأصنام تكن ناصراً للشيطان وقريناً له في نار جهنم مستحقًّا للطرد من رحمة الله.

والملفت للنظر أن إبراهيم كان يصدّر وعظه لأبيه بكلمة (يا أبت) التي تنبىء عن شدة حبه له ورغبته في صونه من عقاب الله.

وبعد هذه الموعظة من إبراهيم يأتي جواب الأب:

﴿قَالَ: أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهتي يا إبْراهيمُ﴾ استفهام للإنكار والتهديد، أي أمعرض يا إبراهيم ومنصرف عن عبادة آلهتي؟ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ لئن لم تكفّ عن عيبها وتمتنع عن طلبك مني ترك عبادتها لأقذفنك بالحجارة، وقد يراد بالرجم هنا الشتم والذم ﴿واهْجُرْني مَلِيًّا﴾ واهجرني زمناً طويلاً لا أراك فيه ولا يصيبك مني أذى.

والملفت للنظر أن الأب قابل ابنه إبراهيم بالعنف فلم يقل له يا بنيّ، كما قال له إبراهيم يا أبت، بل قابل نصحه بالوعيد والتهديد، وفي هذا مواساة لمحمد ﷺ لما يلاقيه من قومه من أذى جزاء نصحه لهم بترك عبادة الأصنام.

أمام هذا التهديد أجاب إبراهيم والده: ﴿قَالَ: سلام عليك سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[1] أي سلام عليك مني سلامَ مفارق لك ومودّع، وسأطلب من الله أن يغفر لك ويتوب عليك ويهديك ﴿إنَّه كَانَ بي حَفِيًّا﴾ إنه كان بي رحيماً بارًّا، وقد عوّدني الإجابة إذا دعوته ﴿وَأَعْتَزِلُكُم وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وها أنذا أهجركم وأجتنب ما تدعون من دون الله من الأصنام ﴿وأدْعُوا رَبِّي﴾ والدعاء هنا بمعنى العبادة، أي وأعبد ربي وحده ﴿عَسَى ألاَّ أكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شقيًّا﴾ راجياً أن يقبل عبادتي ويجيب

(١) لقد استغفر إبراهيم لأبيه بناءً على وعد سابق منه أن يؤمن كما جاء في القرآن ﴿ومَا كَانَ اسْتِغْفَارُ ابراهيم لأبيه إلاّ عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيّاه فلمّا تبيّن له أنّهُ عدوٌّ لِلّهِ تبرأ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. هذا وإن طلب الهداية للكفار في حال الحياة جائز، أما من مات على الكفر والشرك بالله فلا يدعو له بالرحمة، من هنا عُدّ قول بعض الناس المرحوم فلان أو المغفور له، وهو يعلم أنه مات كافراً، غير جائز.

دعائي ولا يخيّب رجائي. وكلمة (عسى) فيها من التواضع والرجاء من الله بأن يشمله برضوانه.

﴿فَلَمَّا اعتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فلمّا فارق إبراهيم أباه وقومه ووطنه ﴿وَهَبْنَا لَـهُ إسحٰق وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نبيًّا﴾أي أكرمه الله بذرية صالحة وهما ابنه إسحق، وحفيده منه يعقوب، وكلٌّ من إسحق ويعقوب جعله الله نبيًّا، وأوحى إليهما بوحيه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ وأعطيناهم الخير من العلم والمنزلة العالية في الدنيا، والنعيم في الآخرة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ورزقناهم الثناء الحسن والذكر الجميل، فراح الناس يذكرونهم ويثنون عليهم في حياتهم وبعد مماتهم.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

شرح المفردات

مُخْلَصاً: اختاره الله واصطفاه.

الطُّور: جبل بين مصر ومدْين.

وقرّبناه نجيًّا: شرّفناه بمناجاتنا.

صِدِّيقاً: ملتزماً الصدق في جميع أحواله.

ورفعناه مكاناً عليًّا: أعلينا مكانته بشرف النبوة، ورفعنا منزلته.
اجتبينا: اصطفينا.
خرّوا سجّداً: صاروا في حال السجود لله واضعين جباههم على الأرض.
بكيًّا: دامعة عيونهم من خشية الله.

من فضائل الأنبياء

وبعد الحديث عن إبراهيم وإسحق ويعقوب تنتقل بنا الآيات للكلام عن طائفة من الأنبياء:

﴿وَاذْكُر فِي الكِتَابِ مُوسَى﴾ أي واتل يا محمد على الناس ما في القرآن من قصة موسى **﴿إِنَّه كَانَ مُخْلَصاً﴾** بفتح اللام، أي اختاره الله واصطفاه، وقرئت (مُخلِصاً) بكسر اللام بمعنى: أخلص عبادته لله وحده، وأفرده بالألوهية، فلم يجعل له شريكاً، ولم يراء في عبادته لله **﴿وَكَانَ رَسُولاً نبيًّا﴾** وكان رسولاً من الله إلى فرعون ونبيًّا أوحى الله إليه بالتوراة **﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّور الأَيْمَنِ﴾** وكلّمه الله من جانب الطور الأيمن، أي جانب يمين موسى. فقد ترك موسى مدْين قاصداً مصر فنودي من جهة الشجرة، وكانت في جانب الجبل عن يمين موسى، وقد تكون كلمة الأيمن مشتقة من اليمن وهو البركة، أي من جانب الطور المبارك **﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾** وأدنيناه لمناجاتنا تقريب تشريف وتكريم **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾** ومنحنا موسى من رحمتنا حيث اخترنا معه أخاه هارون نبيًّا. وكان موسى قد طلب من ربه أن يعاونه أخوه هارون في تبليغ رسالة الله إلى فرعون لأنه أفصح منه لساناً، فاستجاب الله له.

وبعد الكلام على موسى يأتي الكلام على إسماعيل وهو ابن نبيّ الله إبراهيم عليهما السلام: **﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾** أي واتل يا محمد على الناس ما في القرآن من قصة إسماعيل **﴿إِنَّه كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾** أي كان صادق الوعد مع ربه ومع الناس لم يخلف وعداً وعده لأحد.

وصدق الوعد من أهم ما تتصف به الشعوب المتمدنة، فتراهم يحرصون على مواعيدهم أشد الحرص، ويحتقرون من لا يراعيها، وبهذا انتظمت أمورهم، وحلّت الثقة فيما بينهم، أما خُلْفُ الوعد فهو مظهر من مظاهر التخلف والشخصية الضعيفة، كما أنه علامة من علامات النفاق، فالذي يخلف الوعد لا يراعي حرمة أحد، ولا يبالي بالوقت المهدور سدى عند الغير[1]. ومن أهداف القرآن أنه يذكر الصفات السامية في أنبيائه لتكون أمثولة وقدوة يقتدي بها المؤمنون ليفوزوا في حياتهم ولينالوا الرضى من ربهم ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ وبالإضافة إلى كون إسماعيل صادق الوعد فقد اصطفاه الله لرسالته إلى الناس وكان نبيًا يأتيه الوحي من عند الله.

كما أن من صفات إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ والصلاة والزكاة هما أهم أركان الدِّين، وقد كان أنبياء الله يأمرون قومهم بهما. فالصلاة هي القيام بواجب العبادة للخالق والثناء عليه والشكر له، وطلب المعونة والهداية منه، وبهذا يظل الإنسان موصولاً بخالقه، لا يحيد عن الطريق الذي رسمه له، أما الزكاة فهي الصدقة على المحرومين من عباد الله بشكل منظم مفروض، وبهذا تسود روح الأخوّة والتعاطف في المجتمع، وينتفي الظلم والحسد بينهم.

فإسماعيل كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة لأنهم أقرب الناس إليه وأطوعهم للاستجابة له، وهذا توجيه لنا بأن نأمر أهلنا على الدوام بالمحافظة على هاتين الفريضتين لما فيهما من الخير العميم ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي وكان إسماعيل في مقام كريم من رضا ربه. تأمّل كيف رتّب الله على صفات إسماعيل: من صدق الوعد، ومن أمرِ أهله بالصلاة والزكاة، رضا الله عليه، ومعنى ذلك أن المؤمن إذا قام بهذه الصفات حاز رضوان الله سبحانه.

---

(١) جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

ثم تنتقل بنا الآيات للحديث عن إدريس عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ أي واتل يا محمد على الناس ما في القرآن من قصة إدريس ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ إنه كان شأنه الصدق قولاً وفعلاً، وقد منحه الله شرف النبوّة. وصدّيق: من صيغ المبالغة أي كثير الصدق، فهذا ثناء من الله عليه لكثرة صدقه، والصدق من أهم الصفات الخُلُقيّة في الإنسان، ومن الدعائم التي تقوم عليها سلامة المجتمع وازدهاره، وما شاع الكذب في قوم إلاّ فسدت العلاقات بينهم وانعدمت الثقة بين بعضهم البعض، وهو من مقوّضات المجتمع، وكانت نتيجة صدق إدريس أن رفع الله قدره ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ والمكان العليّ هو شرف النبوة والقربى من الله.

ثم وصف الله هؤلاء الأنبياء جميعاً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيين مِنْ ذُرِّيَّـةِ آدمَ﴾ أي أولئك الذين سلف ذكرهم ممن أنعم الله عليهم بشرف النبوّة من نسل آدم الذين اصطفاهم من بين عباده ليكونوا قدوة حسنة للناس، وذكر من ذرية آدم إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن ذرية مَن نجّاه الله مع نوح في السفينة، ويريد بهم إبراهيم لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّـةِ إِبْراهِيمَ﴾ ويريد بهم إسحق ويعقوب وإسماعيل ﴿وإسْرائيل﴾ هو يعقوب، ومن ذريته: يوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وقد فرّق الله تعالى بين أنسابهم وإن كان أبوهم كلهم آدم ﴿وَمِمَّن هَدَيْنَا واجْتَـبَيْنَا﴾ أي هم من جملة من هديناهم إلى الحق واصطفيناهم للنبوة والكرامة ﴿إِذَا تُـتْلَى عَلَيْهِم آياتُ الرَّحمْنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ إذا سمعوا كلام الله يُقرأ عليهم من كتبهم المنزلة عليهم سجدوا لربهم واضعين جباههم على الأرض، خضوعاً وتذللاً له وهم يبكون من خشيته ومن تصوّر عظمته، وحذراً من عقابه.

هذا هو الإيمان الحقيقي الذي خالط القلوب واستحوذ على المشاعر، وتغلغل في النفوس. ما أبعدنا عن هذا المفهوم، وما أقسى قلوبنا إذ نسمع كلام الله فلا تخشع له قلوبنا ولا نبكي عند سماعه، ولا يثير في نفوسنا ذلك التأثير الذي كان يستشعره أنبياء الله!

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

شرح المفردات

فخلف من بعدهم: فجاء بعدهم.
أضاعوا الصلاة: تركوا الصلاة المفروضة.
يلقون غيًّا: يلقون شرًّا وخسراناً.
ولا يُظلمون شيئاً: ولا يُنْقَصون من جزاء أعمالهم شيئاً.
جنات عدن: جنات استقرار واطمئنان.
وعد الرحمن عباده بالغيب: وعدهم الله إياها وهي غائبة عنهم.
مأتيًّا: آتياً لا ريب فيه.
لغواً: اللغو من الكلام هو القبيح والساقط وما لا يحصل منه على نفع.
بُكرة وعشيًّا: صباحاً ومساءً.
هل تعلم له سميًّا: هل تعلم أحداً سُمّي باسم الله غيره.

أهل الضلال وأهل الهدى

وبعد أن بيّن الله صفات بعض أنبيائه وما يتحلون به من الفضائل ذكر في مقابلهم صفات أهل الضلال:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَواتِ﴾ أي ثم جاء من

بعد هؤلاء الأنبياء الذين سبق ذكرهم أجيال من الناس أضاعوا الصلاة بأن أخروها عن وقتها، أو تركوها، أو قاموا لأدائها بلا خضوع وخشوع، واتبعوا الشهوات مثل شرب الخمر واللهو والانهماك في فنون المعاصي ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْن غَيًّا﴾ فسوف يلقون شرًا وضلالاً. فالله جعل إضاعة الصلاة واتباع الشهوات سبباً للضلال والوقوع في الشر، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والشهوات تقضي على المواهب العقلية وتضعف الجسد، وتؤدي إلى سخط الله، وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «حُفّت الجنّة بالمكاره وحُفّتِ النار بالشهوات»[1].

﴿إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً﴾ يقال: تاب إلى الله أي رجع عن المعصية إلى طاعة الله، فمن رجع عن إضاعة الصلاة واتباع الشهوات، وصدق في إيمانه وعمل صالحاً ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ولا يُظْلَمون شَيئاً﴾ فأولئك يقبل الله توبتهم ويدخلون الجنة ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ جنات ذات الإقامة الدائمة ﴿الَّتي وَعَدَ الرَّحمْنُ عِبَادَهُ بالغَيْبِ﴾ وهي التي وعدهم بها ربهم الرحمن، وهي من الغيب التي يؤمنون بوجودها في الآخرة ﴿إنَّه كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي إن وعد الله آتٍ لا محالة.

﴿لا يَسْمَعُون فِيها لَغواً إلاَّ سلاماً﴾ أي لا يسمعون في الجنة الكلام الساقط القبيح الذي لا يحصل منه فائدة ونفع، ولا يسمعون في الجنة إلاّ تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ولهم في الجنة رزقهم من المآكل والمشارب على مقدار الوقت الممتد بين أول النهار وآخره بالنسبة إلى نهار الدنيا، إذ لا ليل ولا نهار في الجنة لأنهم في النور أبداً، والمراد بذلك دوام الرزق لهم.

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

﴿تِلْكَ الجنَّةُ التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ هذه هي الجنة وهذه هي صفاتها يورثها الله لعباده المتقين له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ هذه الآية حكاية لما جرى بين رسول الله محمد ﷺ وبين الملك جبريل عليه السلام حين أبطأ نزول الوحي عليه من الله، فقال النبي ﷺ لجبريل الموكل بنقل الوحي إليه: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»؟ فنزلت هذه الآية حكاية لقول جبريل: وما ننزل بالوحي وقتاً بعد وقت إلاّ بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي يعلم ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب، ويعلم ما خلفنا فيما مضى من عمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ويعلم سبحانه ما بين الدنيا والآخرة وأحوال الناس فيها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وما نسيك ربك يا محمد عند انقطاع الوحي عليك هذه الفترة القصيرة ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهمَا﴾ أي خالقهما والمتصرف فيهما والمدبر لما بينهما من الخلق، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يجوز عليه النسيان ﴿فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبَادتِهِ﴾ أي فاخضع له وتذلَّل وائتمر بما أمرك الله واصبر على تكاليف العبادة واثبت عليها ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي لا تعلم أحداً سُمِّي باسم الله غيره، والعرب كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شيء سواه، كما أنه سبحانه ليس له مثيل.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾﴾

شرح المفردات

أخرج حيًّا: أخرج من قبري يوم القيامة حيًّا.
لنحشرنهم: لنجمعنهم.
جثيًّا: باركين على الرّكب.
لننزعن: نزع الشيء: جذبه من مكانه بقوة.
شيعة: جماعة مرتبطة بمذهب من المذاهب.
عتيًّا: عصياناً وتمرداً.
أوْلى بها: أحق بجهنم بها.
صليًّا: احتراقاً.
الفريقين: المؤمنين والكافرين.
مقاماً: مكاناً ومسكناً.
نديًّا: مجلساً ومجتمعاً.
أثاثاً: متاع البيت.
ورِئْياً: منظراً وهيئة.

البرهان على حصول البعث ومصير الكافرين

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى ذِكْرِ ما يتعلل به الكفار لإنكار البعث:

﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ والمراد بالإنسان هنا جماعة معينون من الكفار المنكرون للبعث، فقد قال أحدهم على سبيل الإنكار والتعجب: هل إذا مت وتحلل جسمي وأصبحت تراباً لسوف أبعث حيًّا من القبر للحساب والجزاء؟ وسبب نزول هذه الآية أنّ أُبيّ بن خلف أخذ عظماً بالياً فجعل يفتّه بيديه ويذريه في الريح ويقول: زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نكون مثل هذا العظم البالي!

ولكن الرد القرآني أتى مفحماً لهؤلاء المنكرين للبعث بأبلغ حجة حيث يقول تعالى: ﴿أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيئاً﴾ أي ألم يتفكر هذا المنكر للبعث أن الله خلقه قبل مماته من العدم قبل أن يكون شيئاً موجوداً؟ فكيف يستبعد هذا الإنسان إعادة خلقه؟ وينقل الفخر الرازي عن بعض العلماء هذا القول: «لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها إذ لا شك أن الإعادة أهون من الإيجاد أولاً» ونظير ذلك ما جاء في القرآن في إثبات البعث ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فكلا الخلق والإعادة هيّن على الله والإعادة أهون في نظرنا نحن البشر.

ثم يهدد الله الكافرين المنكرين للبعث: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم وَالشَّيَاطِينَ﴾ فوربك: أقسم الله باسمه وأضاف إليه رسوله محمداً تعظيماً لشأنه، فالله يقسم بأنه سيبعث هؤلاء المنكرين للبعث وسيحشرهم مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُم حَوْلَ جَهَنَّم جِثِيّاً﴾ ثم يؤكد الله بأنه سيحضرهم حول جهنم قاعدين على ركبهم إهانة لهم فيرى السعداء ما نجاهم الله منه من عذاب جهنم فيزدادون غبطة وسروراً ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتيًّا﴾ ثم يخرج الله من كل جماعة وطائفة من طوائف الضلال والفساد من هم أشد كفراً، وأكثرهم تكبراً وتعدّياً على حدود الله فيدفع بهم قبل سواهم في نار جهنم، وهكذا تظهر لنا عدالة الله التي لا تسوّي بين المجرمين في العقاب وإنما لكلٍّ درجات في العذاب بحسب جرمهم ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالَّذِين هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ والله أعلم بمن هو أحق بالسبق في دخول جهنم والاصطلاء بحرّها.

﴿وَإِنْ مِنْكُم إلاَّ وَارِدُهَا﴾ أي ما منكم من أحد أيها الناس إلاّ ويمرّ على جهنم مسلماً كان أم كافراً، أما المسلم فتكون عليه برداً وسلاماً ثم يبعد عنها كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وأما الكافر فيظل فيها ليعذَّب بنارها.

وقيل: المراد بقوله تعالى: واردها، هو المرور فوق الجسر المنصوب على جهنم وهو المسمى بالصراط فيسلم أهل الجنة ويهوي الكفار في النار.

وهناك قول آخر وهو أن دخول النار يختص بالكفار فلا يَرِدُها المؤمن ﴿كَانَ عَلَى ربِّك حتْماً مقْضِيّاً﴾ وكان هذا الأمر واقع حتماً جرى به قضاء الله ﴿ثُمَّ نُـنَجِّي الّذينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظالمينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ ثم يشمل الله المتقين برحمته فينجيهم من جهنم ويترك الذين كفروا فيها قاعدين على ركبهم لا يستطيعون الخروج منها.

﴿وإذَا تُـتْلى عَلَيْهِم آياتُـنَا بيِّـنَاتٍ﴾وإذا قرئت على الكفار آيات القرآن الواضحة البرهان، الظاهرة الحجة على حصول البعث ﴿قَالَ الّذِينَ كفروا لِلّذينَ آمنوا أيُّ الفريقين خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي قال الذين كفروا مفتخرين على المؤمنين: أيّ الفريقين منا ومنكم أفضل مكانة ومنزلة، وأيٌّ منا ومنكم أحسن مجلساً ومجتمعاً نحن أم أنتم؟ وغرضهم من هذا القول زعزعة عقائد المسلمين مُوهِمين الفقراء منهم بأن من يملك المال والجاه فالحق والصواب في جانبه.

ولكنّ الله يردّ على مزاعمهم الباطلة هذه بقوله: ﴿وَكَمْ أهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المفتخرين بغناهم وجاههم من الأمم السابقة حيث كانوا أحسن منهم (أثاثاً) وهو متاع البيت من الفرش والثياب (ورئياً) وأبهى منظراً، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس أو حسن الأبدان ونضارتها أو مجموعهما.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

شرح المفردات

فليمدد له الرحمن مدًّا: يمهله الله بطول العمر وإعطاء المال ليزداد إثماً.

الساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

الباقيات الصالحات: الأعمال الصالحات يبقى ثوابها عند الله.

مردًّا: مرجعاً وعاقبة.

ونمدّ له من العذاب مدًّا: نزيده عذاباً فوق عذاب.

ويأتينا يوم القيامة فرداً: أي يأتي يوم القيامة وحيداً لا مال له ولا ولد ولا جاه.

عزًّا: منعة وقوة وشفعاء.

تؤزّهم أزًّا: تهيجهم على المعاصي وتغريهم بها.

فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عدًّا: فلا تعجل بهلاكم فلم يبق لهم إلا أيام معدودة على عقابهم.

وفداً: جمع وافد، بمعنى الراكب.

وِرداً: عطاشاً.

عَهْداً: أي عهداً بتوحيد الله وطاعته.

عاقبة الضلال

ثم ينذر الله الذين يسلكون سبل الضلال بسوء العاقبة:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدًّا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء

الكافرين المفتخرين بمكانتهم الاجتماعية: من كان مستغرقاً في الضلالة فإن الله يمهله في غيّه ويدعه في طغيانه ليزداد إثماً ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُون إِمَّا العَذَابَ وإمَّا السَّاعَةَ﴾ أي حتى إذا شاهدوا ما وعدهم به ربهم من عذاب عاجل كما حصل يوم معركة بدر حيث قُتل سبعون من كفار قريش، أو يلقوا ربهم فيعذبهم يوم القيامة بما اقترفوه من آثام ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ أي حينئذ ستتبين لهم حقيقة وضعهم المزري وسيعلمون من هو شر مكانة ومنزلاً وأضعف أنصاراً وأعواناً.

هذه الآيات نزلت بمكة حيث كان الإسلام ضعيفاً محارباً من سادات قريش، ولكننا نرى في هذه الآيات تهديداً ووعيداً للكافرين بنزول العذاب بهم ووعداً إلّهيًّا للمؤمنين بالنصر عليهم، هذا الوعد تحقق بانتصار المسلمين عليهم حينما هاجروا إلى المدينة المنورة والتحموا مع الكفار في معركة بدر وانتصروا عليهم انتصاراً ساحقاً بالرغم من وفرة عدد الكفار وكثرة سلاحهم، بالإضافة إلى معارك أخرى حيث قضي عليهم. فأيُّ دليل أقوى من ذلك، وأيّ برهان أوضح يشهد أن القرآن وحي إلّهي، وأن محمداً رسول الله حقًّا؟

هذا مصير الكافرين، أما حال المؤمنين فهو: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ أي ويزيد الله المؤمنين إيماناً ويقيناً وبصيرة ﴿والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ والأعمال الصالحات والطاعات التي أمر الله بها عباده هي خير لمن عمل بها عند ربه لما ينال بها من الثواب والأجر الجزيل، وهي أحسن عاقبة ومرجعاً لأن عاقبتها المسرّة الأبدية والنعيم المقيم.

ثم يأتي الكلام على رجل من المشركين ينكر البعث ويسخر من المعتقدين به وهو (العاصي بن وائل) فقد جاءه رجال من أصحاب رسول الله يطالبونه بدَيْن لهم عنده، فقال: «ألستم تزعمون أن في الجنة فضة وذهباً وحريراً، ومن كل الثمرات؟»

قالوا: «بلى»، فقال: «فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتينّ مالاً وولداً، ولأوتينّ مثل كتابكم الذي جئتم به» فنزلت الآيات التالية في حقه:

﴿أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بآيَاتِنَا﴾ أي انظر يا محمد إلى حال هذا الكافر، واعجب من جرأته على الله حيث كفر بآيات القرآن وبخاصة الآيات التي أثبتت البعث ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلداً﴾ أي وقال مستهزئاً مصدّراً كلامه باليمين الكاذبة قائلاً: لأعطين في الآخرة مالاً وولداً ﴿أَطَّلَعَ ٱلغَيْبَ﴾ الهمزة للاستفهام وأصله: أأطلع، والمعنى: هل بلغ من عِظَمِ الشأن أن ارتقى إلى علم الغيب الذي استأثر الله به حين ادعى أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ وهل أخذ من الله عهداً أنه حين يُبعث يكرمه الله فيؤتيه المال والولد؟ ﴿كَلاً سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ كلا: كلمة ردع، أي ليس الأمر كما يقول، فهو لم يطّلع على الغيب ولا اتخذ عند الله عهداً. سنكتب ما يقول لنعاقبه على افتراءاته، وسنطيل له العذاب ونجعل بعضه إثر بعض ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ ويحرمه الله ما تمناه في الآخرة من مال وولد ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ ويأتي ربه يوم القيامة وحيداً بلا مال ولا ولد ولا ناصر.

المتمعّن في هذه الآيات المذكورة سابقاً يرى فيها الصبغة الإلّهية لا الصبغة الإنسانية، فالقرآن وحي من الله وليس من تأليف محمد كما يدّعي الذين ينكرون نبوّته عن جهل وعناد.

ثم يعود القرآن لمناقشة المشركين من قريش الذين كانوا يعبدون الأصنام:

﴿واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي واتخذوا من غير الله آلهة يعبدونها وهي الأصنام ﴿لِيَكُونُوا لَهُم عِزًّا﴾ أي لينالوا بها العز والمنعة ﴿كَلاً سَيَكْفُرونَ بِعِبَادَتِهِم﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل سيكفرون بها يوم القيامة بعد أن كانوا يعبدونها، وقد يكون الضمير للمعبود حيث تتبرأ الآلهة من عبادتهم لها ﴿ويَكونون عَلَيْهِم ضِدًّا﴾ وسيكونون عليهم ضدًّا وخصماً وذلاً لا عزًّا كما كانوا يزعمون.

﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَـاطِينَ عَلَى الكافرينَ تَؤُزُّهُم أزًّا﴾ أي ألم تعلم يا محمد أننا سلّطنا الشياطين على الكافرين تحثّهم على المعاصي وتغريهم بها حتى يقعوا فيها ﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيهِم﴾ فلا تطلب سرعة العذاب لهم ﴿إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ إننا نعدّ عليهم الأيام والليالي والأنفاس إلى حين انتهاء آجالهم وهم صائرون إلى العذاب لا محالة.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ المتَّقِين إلى الرَّحمٰنِ وَفْداً﴾ أي اذكر يا محمد يوم القيامة الذي يجمع الله فيه المتقين إلى جنة الرحمن ـ الذي وسعت رحمته كل شيء ـ وفوداً وجماعات مكرمين ﴿وَنَسُوقُ المجْرِمِين إلَى جَهَنَّم وِرْداً﴾ ويدفع الله في هذا اليوم المجرمين إلى جهنم عطاشاً كاندفاع الدواب العطاش الملهوفة إلى الماء ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا يملك أحد أن يشفع لهؤلاء المشركين ولا يستحقون أن يشفع لهم ﴿إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحمٰنِ عَهْداً﴾ ولكن يستحق الشفاعة من اتخذ عند الله عهداً بأن كان موحداً لله مطيعاً له مؤمناً برسوله محمد متبعاً له، وأذن الله أن يشفع له.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

شرح المفردات

إدّاً: منكراً عظيماً.

يتفطّرن: ينشققن.

تنشقّ الأرض: تنخسف.

تخرّ الجبال هدًّا: تسقط متهدمة.

وما ينبغي: وما يليق.

لقد أحصاهم: حدد عددهم وأحاط بهم.

وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً: وكل واحد منهم آتٍ يوم القيامة وحيداً لا أتباع له ولا أنصار.

سيجعل لهم الرحمن ودًّا: سيجعل الله لهم في قلوب عباده مودة لهم.

لدًّا: معاندين مبالغين في الخصومة.

ركزاً: صوتاً خفيًا.

جرم الإدعاء بأن لله ولداً

ثم يأتي ختام السورة وفيه الوعيد الشديد لمن يدعي بأن لله ولداً:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً﴾ أي وقال بعض اليهود: عزير ابن الله، وقال أكثر النصارى: المسيح ابن الله، وقال بعض المشركين العرب: الملائكة بنات الله. **﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾** لقد جئتم يا من تقولون ذلك بقول منكر عظيم **﴿تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾** تكاد السماوات يتفتّتن ويتقطّعن من هول هذا القول **﴿وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ﴾** وتكاد الأرض تنخسف **﴿وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا﴾** وتكاد الجبال تسقط وتتهدّم **﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً﴾** بسبب ادعائهم أن لله ولداً.

أي إن هول هذه الكلمة ـ بأن لله ولداً ـ وعظمها، بحيث لو تصوّر بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتشققت من شدة جرم قائلها، ولأن فظاعتها مجلبة لغضب الله، ولولا حلمه لخرّب العالم غضباً على من تفوّه بها، والله لا يعجل بالعقوبة على من يعصيه.

ثم يبين القرآن حقيقة ذات الله سبحانه: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أن يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ أي ولا يليق بالله الذي وسعت رحمته كل شيء أن يتخذ ولداً، لأن التوالد مستحيل بالنسبة لله، ولم يكن لله زوجة، ولأن الولد يقتضي جنسية الأب والحدوث والله سبحانه منزّه عن ذلك.

﴿إنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إلاّ آتِي الرحمٰن عَبْداً﴾ إن: بمعنى ما. أي ما كل ما في السماوات والأرض من الخلائق إلاّ وهو سيأتي إلى الله يوم القيامة مقرًا له بالعبودية خاضعاً له وذليلاً ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُم وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ لقد علم الله عددهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن دائرة علمه وقبضة إرادته ﴿وَكُلُّهُم آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ أي كل واحد منهم آتٍ إلى الله تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار، وبلا مال وولد.

﴿إنَّ الّذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا﴾ أي إن الذين آمنوا بالله ورسله وصدّقوا بما جاءهم من عند ربهم من الهدى وعملوا بصالح الأعمال التي أمرهم بها سيحبهم الله ويحبّبهم إلى خلقه. وقد كان عثمان بن عفان أحد الخلفاء الراشدين يقول: ما من الناس عبد يعمل خيراً أو شرًا إلا كساه الله رداء عمله.

وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً، فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[1] ﴿فَإنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ به المتَّقِينَ﴾ فإنما

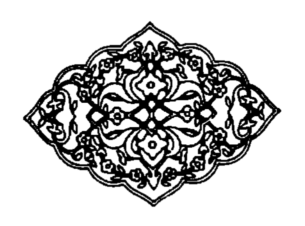
---

(١) أخرجه البخاري.

يسّرنا هذا القرآن بلسانك يا محمد لتقرأه على قومك وتبشّر به المتقين بالجنة ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ وتنذر بسخط الله وعذابه القوم الذين يخاصمونك بشدة ولا يقبلون الحق عناداً.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم من أَحَدٍ أو تَسْمَعُ لَهُم رِكْزاً﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا من الأمم السابقة الذين عاشوا قبل المشركين من قومك يا محمد وقد كان هلاكهم لكفرهم بآيات الله وتكذيبهم رسله، فهل ترى منهم أحداً بعد هلاكهم أو تسمع لهم صوتاً خفيًّا؟ والمراد أنهم هلكوا وخلت منهم الديار.

هذا إنذار من الله بهلاك المشركين، وقد جاء هذا الإنذار لهم في مكة حيث كان الإسلام ضعيفاً والمسلمون مضطهدين، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى اندحر المشركون في معارك شتى وقتل منهم الكثير وارتفعت راية الإسلام ورفرفت فوق ربوع جزيرة العرب.



تعريف بسورة طه

سورة طه من السور المكية، وقد نزلت لشد أزر رسول الله محمد ﷺ وتثبيتاً لقلبه بسبب ما كان يلاقيه من كيد وعناء واضطهاد من كفار قومه.

ومطلع هذه السورة فيه وصف لجلال ربوبية الله وعظمته بما تخشع له القلوب، فهو مالك السماوات والأرض وهو الذي يعلم السرّ وما هو أخفى منه.

وأكثر محتويات هذه السورة يدور فيها الكلام على موسى بجملة من الصور البيانية التي تحتوي على كثير من المواعظ والعبر:

منها: موقف المناجاة بين موسى وربه واختياره رسولاً منه إلى فرعون.

ومنها: تأييده بمعجزة العصا التي تتحول إلى ثعبان، ويده التي كان إذ يضعها تحت إبطه فتصبح بيضاء متلألئة كشعاع الشمس.

ومنها: طلب موسى من ربه أن يكون أخوه هارون نبيًا مثله ليؤازره في دعوة فرعون إلى الإيمان بالله فاستجاب الله لطلبه.

ومنها: بيان فضل الله على موسى منذ ولادته إلى أن أصبح رسولاً من الله.

ومنها: وصية الله لموسى وهارون بجملة من الأمور قبل ذهابهما إلى فرعون.

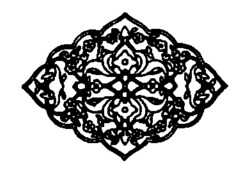
ومنها: الحوار الذي جرى بين موسى وفرعون حول ربوبية الله.

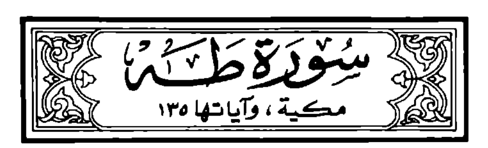
ومنها: المبارزة بين موسى والسحرة وانتصار موسى عليهم حيث ابتلعت عصاه كل أدوات السحر التي قدموها فأعلن السحرة إيمانهم برب موسى.

ومنها: بيان فضل الله على بني إسرائيل حيث أنجاهم من فرعون.

ومنها: فتنة السامري لبني إسرائيل ودعوته إياهم إلى عبادة العجل.

وفي السورة بيان لمصير الكافرين يوم القيامة، ووصف بعض المظاهر الكونية له. كما تذكر السورة قصة آدم وغواية الشيطان له، مع إنذار الكافرين بالهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

شرح المفردات

طه: من أسماء النبي محمد ﷺ.
لتشقى: لتقاسي العناء.
تذكرة: تذكيراً وموعظة.
العرش: كرسي الملك وهنا كناية عن الملك.
استوى: استولى وعلا، بمعنى تصرف فيه على مقتضى حكمته.
الثرى: التراب.
له الأسماء الحسنى: له الأسماء الفاضلة الكريمة.
إني آنست ناراً: إني أبصرت ناراً.

عظمة الله وشمول ملكه

استهل الله هذه السورة ببيان الغاية من القرآن وأنه مصدر سعادة لا مصدر شقاء: ﴿طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى﴾ طه: قيل في تفسيرها جملة أقوال، منها: إن معناها يا رجل، كما جاء في بعض لغات العرب، والمقصود بالرجل هنا

النبي محمد ﷺ، وقيل: إن طه اسم من أسماء النبي محمد ﷺ. والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد بطريق الوحي لتتعب وتقاسي العناء لفرط تأسفك على قومك بسبب عدم إيمانهم ﴿إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ ولكن الله أنزل عليك القرآن رحمة ونوراً وعظة لمن يخشى عقاب الله فيتقيه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

﴿تَنزِيلاً مِمَّن خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمٰوٰتِ العُلَى﴾ العلى: جمع العليا، ولم يقل الله: «السماء العليا» وهي التي تظهر للعيان في عصر نزول القرآن وإنما قال: السماوات، ووصفها بالعُلى بصيغة الجمع يتجلى فيها إعجاز علمي للقرآن. فقد توصل علماء الفلك حديثاً بواسطة المراقب المتطورة إلى أن في الكون ملايين المجرات، وأن كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم، وأبعادها لا تقاس بالمقاييس المعتادة، لذا اعتمد علماء الفلك سرعة الضوء وحدة لقياس أبعادها، وسرعة الضوء ١٨٦ ألف ميل في الثانية، وقد شاهد العلماء بواسطة المراقب الضخمة مجموعات من النجوم تبعد عنا بمدى ألفي سنة ضوئية. فما ذكره القرآن بأن الله خالق ﴿السَّمٰوٰتِ العُلَى﴾ هو تبيان لحقيقة علمية كان يجهلها البشر منذ أربعة عشر قرناً وأدرك علماء الفلك أسرارها في القرن العشرين للميلاد.

﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ ومُنزل القرآن هو الله الذي وسع كل شيء رحمة، وهو الذي علا أو استولى على العرش من غير تشبيه ولا تكييف، والعرش كرسي الملك لدى البشر وهو هنا كناية عن المُلْك، وعرش الله لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم، وقد قال الإمام مالك رحمه الله لمن سأله عن تفسير هذه الآية: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب.

﴿لَهُ مَا في السَّمٰوٰتِ وَمَا في الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي إن الله سبحانه يملك ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما من الموجودات والكائنات ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرى﴾ ويملك سبحانه ما تحت التراب من كنوز ومعادن ونفط وغيرها.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وإن تجهر يا محمد في أقوالك أو تخفها في نفسك فإن الله يعلم السرّ، وهو ما يحدّث الإنسان به غيره في خفاء، أما أخفى من السرّ فهو خواطره النفسية التي لا يحدّث بها أحداً. وإذا علم الإنسان هذه الحقيقة كان ذلك باعثاً له على التخلص من خواطره السيئة لأنه سيحاسب عليها كما ذكرته الآية الكريمة: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. هذا وإن خاطرات السوء تتجسد في سلوك الإنسان إذا استسلم لها، أما إذا جاهد الإنسان نفسه للتخلص منها فإنه يبلغ مرتبة الطهارة النفسية والسمو الخلقي.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فالله هو المعبود بحق الذي لا تصلح العبادة إلاّ له فاعبدوه أيها الناس دون سواه ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الحسنى: تأنيث الأحسن، أي أن الله له محاسن الأسماء لدلالتها على معاني الإحسان والتقديس والرأفة والرحمة وغير ذلك من الصفات الحميدة.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ ﴾

شرح المفردات

آنست: أبصرت.

بقبس: بشعلة من نار.

هدى: هادياً يدلني على الطريق.

المقدّس: المطهر أو المبارك.

طُوى: اسم الوادي حيث رأى موسى النار.

اخترتك: اصطفيتك للنبوة.

الساعة: الوقت الذي تقوم به القيامة.

أكاد أخفيها: أريد إخفاء وقتها.

لتجزى: لتنال كل نفس جزاء عملها.

تسعى: تعمل.

يَصُدَّنَّك: يمنعك ويصرفك.

فَتَرْدَى: فتهلك.

تكليم الله لموسى

بعد أن بيّن القرآن عظمة الذات الإلّهية أتبع ذلك بالكلام على موسى ومناجاته لربه. وقبل الحديث عنها نمهد بذكر الأحداث التي سبقتها فنقول: إن موسى فرّ من مصر خوفاً ممّا يبيّت له من محاكمة وعقاب بسبب قتله أحد رعايا فرعون خطأً، فقصد قرية (مدين) حيث تعرّف على شيخ جليل نزل بضيافته، وكان لهذا الشيخ فتاتان زوّجه إحداهما لقاء قيامه بخدمته ثماني سنوات أو عشراً[1]. فلما قضى موسى المدة في خدمة الشيخ استأذنه بالرحيل وسار بأهله قاصداً بلده مصر التي ولد فيها وترعرع بعدما طالت غيبته عنها واشتاق لأهله، وفي طريقه في الصحراء ليلاً ضل الطريق، وكانت ليلة شاتية باردة مظلمة، فجعل موسى يقدح النار فلم تُورِ المقدحة

---

(١) هذا ما ذكرته سورة القصص.

شيئاً، فبينما هو على تلك الحالة رأى عن بُعْدٍ ناراً. ونقف هنا لتحدثنا آيات هذه السورة عما جرى لموسى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسى. إِذْ رَأَى نَاراً﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق، أي هل بلغك يا محمد خبر موسى حين أبصر ناراً؟ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أي قال لزوجه ومن معها من الولد والخدم: أقيموا في مكانكم وانتظروني ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي إني أبصرت ناراً لعلي أحضر لكم من أصحاب هذه النار شعلة توقدون بها ناراً تصطلون بها ﴿أو أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أو أجد عند النار مرشداً يدلني على الطريق الذي ضللت عنه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يا موسَى﴾ فلما توجه موسى نحو النار، إذا به يجدها في شجرة عناب، فوقف متعجباً من حسن ذلك الضوء وشدة خضرة تلك الشجرة، إذ لم تغير شدة حر النار حسن خضرة الشجرة، وقيل إن النار كانت في شجرة من العليق، فقصدها فتأخرت عنه، فتراجع موسى وأوجس في نفسه خيفة، فسمع نداء من جهتها يقول: ﴿إني أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره الله تعالى بأن ينزع نعليه من رجليه ليباشر بقدميه بركة الوادي إذ كان وادياً مقدساً، ولأن ذلك أبلغ في التواضع وحسن الأدب والخشوع عند مناجاة الله تعالى ﴿إِنَّكَ بالوادِ المُقَدَّسِ طُوىً﴾ إنك يا موسى بالوادي المقدس المطهر المسمى (طوى).

موقف لا أروع منه ولا أحلى، فها هو يسمع من ناحية الشجرة كلام ربه الذي يخصه به في هذه الليلة الموحشة الباردة، وإذا الوحشة تنقلب إلى أنس، وإذا الخوف يتحول إلى طمأنينة.

ويتابع الله قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ وأنا الله قد اصطفيتك للنبوة يا موسى لتحمل رسالتي إلى فرعون فاستمع لوحينا الذي نوحيه إليك[١].

---

(١) الوحي هو تلقي الأنبياء الأوامر والشرائع من الله إما بأن يسمع النبي كلام الله دون أن يراه كما جرى لموسى عليه السلام، وإما أن يرسل الله الوحي إلى رسوله بواسطة الملك جبريل، وقد يكون الوحي برؤيا في المنام.

ثم يبين القرآن ما أوحاه الله إلى موسى: ﴿إنّني أنَا اللَّهُ لا إلَه إلاّ أنا فَاعْبُدْني﴾ فهنا إثبات لألوهية الله ووحدانيته والدعوة إلى الإيمان به ونفيها عما سواه. وعبادة الله هي طاعته والخضوع له مع التذلل والانقياد لأمره ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾ وأقم الصلاة لتذكرني بها بإخلاص لا ترائي بها ﴿إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ والساعة هنا المراد بها الوقت الذي تقوم به القيامة وهي آتية لا محالة ﴿أكادُ أُخْفيها﴾ أي أكاد أخفيها من نفسي فكيف أعلنها لكم؟ وهذا على عادة العرب في مخاطبة بعضهم بعضاً إذا بالغوا في كتمان الشيء يقولون: كتمته حتى من نفسي. أو بمعنى: أريد إخفاء وقتها عن الخلق ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ لتثاب أو تعاقب كل نفس بما عملت من خير وشر ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ فلا يصرفنك يا موسى عن التأهب للقيامة والاستعداد لها بالعمل الصالح من لا يصدِّق بها من الكفرة، ولا يرجو ثواباً من الله ولا يخاف عقاباً منه ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ واتبع هوى نفسه وانغمس في المعاصي وخالف أمر الله ونهيه ﴿فَتَرْدَى﴾ فإنك إن تفعل ذلك تهلك، والهلاك هنا المراد به هو سخط الله عليه ودخوله النار يوم القيامة. والخطاب ليس مقصوراً على موسى، وإنما هو شامل لكل الناس، فكل من غفل عن الآخرة واتبع شهواته وأهواءه كان في جملة الهالكين.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾

هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

شرح المفردات

أهشّ بها على غنمي: أضرب بها ورق الشجر ليتساقط فتأكله غنمي.
مآرب أخرى: حاجات ومنافع أخرى.
حية تسعى: ثعبان عظيم يمشي على بطنه سريعاً.
سيرتها الأولى: حالتها الأولى وهي كونها عصا.
واضمم يدك إلى جناحك: واجمع كفك الأيمن وضعه إلى جنبك الأيسر تحت العضد إلى الإبط.
من غير سُوءٍ: من غير عاهة كالبرص.
آية أخرى: معجزة أخرى.
طغى: تجاوز الحد في العصيان والكفر والشر.
اشرح لي صدري: وسّعه لأتحمَّل أعباء النبوة.
احلل عقدة من لساني: أزل لثغة في لساني تمنعني من النطق السليم.
وزيراً: معيناً.
اشدد به أزري: قوِّ به ظهري.
وأشركه في أمري: اجعله شريكاً لي في النبوة.
أوتيتَ سُؤلك: أُجيب طلبك.

من المعجزات التي أيد الله بها موسى

بعد أن ذكر الله سبحانه مكالمته لموسى أتبع ذلك بذكر بعض المعجزات التي أيده الله بها فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ أي وما تلك التي تحملها بيدك اليمنى يا موسى؟ هنا استفهام يتضمن بياناً لما سيريه الله من المعجزات التي سيؤيده بها، فأجاب موسى: ﴿قَالَ: هِيَ عَصَايَ﴾ هذا هو الجواب الوافي لما سأله ربه، وبقيّة المعاني والفوائد عن العصا تُفهم، ولكن موسى ذكر للعصا ما فيها من الفوائد لأنه أحب أن تطول مكالمته لربه وليستمتع بمناجاته فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد

على عصاي في المشي عند التعب أو الوقوف ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غنمي﴾ وأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها ويصبح في متناول غنمي فتأكله ﴿وَلِيَ فيهَا مَآرِبُ أُخْرى﴾ ولي في العصا حاجات ومنافع أخرى. ومنافع العصا كثيرة كما هو معلوم، منها: الدفاع عن النفس من الحيوانات والزواحف الضارة، وحمل الزاد والحوائج على الكتف، وغير ذلك.

ثم أمر الله موسى بإلقاء عصاه على الأرض ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حيَّةٌ تَسْعَى﴾ فألقى موسى عصاه على الأرض فإذا هي تتحول في الحال إلى ثعبان عظيم يتحرك ويمشي، فانتابه الخوف وأسرع بالهرب، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ(١) وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]. عند ذلك ناداه ربه: ﴿قَالَ خُذْهَا ولا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ أي تناولها دون خوف فإننا سنعيدها إلى حالتها الأولى ونردها عصا كما كانت.

ثم أتبع الله معجزة العصا بمعجزة أخرى، فقال لموسى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ وجناح الإنسان جنبه وعضده إلى إبطه، وهو مستعار من جناحي الطائر، حتى إذا أدخل موسى يده اليمنى تحت إبطه الأيسر وأخرجها غدت بيضاء تشعّ كشعاع الشمس تغشي البصر، ثم إذا ردّها إلى جنبه عادت إلى حالتها الطبيعية ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾(٢) من غير برص ولا داء ﴿آيَةً أُخْرى﴾ أي معجزة أخرى مع معجزة العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَى﴾ لنريك يا موسى من معجزاتنا الكبرى

---

(١) جانّ: ضرب من الحيّات.

(٢) من غير سوء: هو رد على ما جاء في كتب اليهود، ففي سفر الخروج (٤: ٦): «وقال له الرب أيضاً: أدخل يدك في عُبّك، فأدخل يده في عُبّه ثم أخرجها فإذا يده برصاء كالثلج». ولكن نقول: متى كان البرص وهو مرض منفّر يتخذه الله معجزة لرسله، وهل الغاية من معجزات الله إلاّ الترغيب في الإقناع بدين الله؟ فما جاء في كتبهم هو نتيجة التحريفات والإضافات التي أدخلت عليها.

الدالة على أنك رسول من عندنا حقًّا إلى فرعون، والعصا واليد هما من ضمن تسع معجزات أيّد الله بها موسى عليه السلام.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي اذهب يا موسى إلى فرعون رسولاً من عندنا وادعه إلى عبادة الله وحده فإنه قد كفر وتجبر وتجاوز حده بادِّعاء الألوهية.

ولمّا كان المثول بين يدي فرعون أمراً شاقًّا لا يحتمله إلا ذو قلب رابط الجأش واسع الصدر فقد دعا ربه: ﴿قَالَ: رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ رب وسع لي صدري لتحمّل أعباء النبوة، ولمجابهة طغيان فرعون بجميل الصبر وحسن الثبات ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ وسهّل عليَّ ما أمرتني به من تبليغ رسالتك ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وأطلق عقدة من لساني ليفهم الناس فهماً دقيقاً ما أقوله لهم. وقد كان في لسان موسى لثغة تعوقه عن النطق السليم[1] ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي. هَٰرُونَ أَخِي﴾ واجعل لي معيناً من أهل بيتي هارون أخي ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ قوِّ به ظهري واعنّي به ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ واجعله نبيًّا كما جعلتني نبيًّا، وأرسله معي إلى فرعون ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ كي نعظّمك وننزهك عما لا يليق بك من صفات النقص والسوء، أو بمعنى: كي نصلّي لك كثيراً، لأن التسبيح يأتي بمعنى الصلاة ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ أي ونذكرك كثيراً بالدعاء والثناء عليك، ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال والجلال ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ إنك كنت عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء.

---

(١) سبب هذه اللثغة كما قيل إنه كان ذات مرة في حضن فرعون وهو طفل فأخذ بلحيته فنتفها، فغضب فرعون وأراد قتله، فقالت له زوجته: إنه صغير لا يعقل، ثم أشارت عليه بأن يمتحنه، فأُتي له بطشت فيه جواهر وبطشت فيه جمر، فالتقط موسى جمرة ووضعها في فيه فاحترق لسانه فكانت بلسانه عقدة، وكان هذا سبب نجاته من فتك فرعون به.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾

شرح المفردات

منّا: أنعمنا.

أوحينا: ألهمنا.

التابوت: صندوق من خشب.

فاقذفيه في اليم: فألقيه واطرحيه في نهر النيل.

وَلِتُصنع على عيني: ولتتربى برعايتي وتوجيهي وإشرافي.

من يكفله: من يقوم بأمره ويربيه.

تقرّ عينها: تُسَرُّ بلقائك ورجوعك إليها.

فنجّيناك من الغم: أنقذناك من الحزن والخوف من فرعون.

وفتنّاك فتوناً: اختبرناك وابتليناك مرة بعد أخرى.

جئت على قَدَرٍ: جئت في الوقت الذي أردنا فيه إرسالك إلى فرعون.

واصطنعتك لنفسي: واصطفيتك للنبوة.

بآياتي: بالحجج والمعجزات التي أيدتك بها.

ولا تنيا في ذكري: ولا تفترا ولا تضعفا في تبليغ رسالتي إلى فرعون.

فضل اللّه على موسى

وبعد أن طلب موسى من ربه توسيع صدره وتيسير أمره وحلّ عقدة لسانه وجعل أخاه هارون نبيًّا مثله ومعيناً له، أجابه الله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أي قد أجبناك يا موسى إلى ما سألتني من هذه الأمور ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي ولقد أنعمنا عليك بفضلنا بنعم كثيرة قبل النبوة ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ ما يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي حين ألهمنا أمك عندما كنت رضيعاً أن تضعك في صندوق وتلقيك في نهر النيل خوفاً من أن يقتلك آل فرعون إذ كانوا يذبحون أبناء بني إسرائيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ أي صدرت إرادة الله أن يلقي النهر الصندوق على الشاطىء أمام قصر فرعون. فبينما كان فرعون جالساً في مجلسه وبصحبته زوجته آسية وهو يطل على نهر النيل رأى ذاك الصندوق فقال: هناك شيء في الماء فأتوني به، فأتوه به ففتح الصندوق فإذا فيه صبيّ جميل الوجه، فأخذه عدوّ الله فرعون، وهو أيضاً عدوّ لك يا موسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيك مَحَبَّةً مِنِّي﴾ وحبّبتك إلى عبادي فكل من رآك أحبك حتى أحبك فرعون فسلمت من شره، وأحبتك زوجته آسية فتبنّتك، ومن أحبه الله أوقع في قلوب عباده محبته ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتتربى برعايتي وتحت حفظي، وقد جعل الله العين مجازاً وتعبيراً عن الرعاية والحراسة فإن الناظر إلى الشيء يحرسه مما لا يريد في حقه.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ: هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ ولمّا ألقت أم موسى الصندوق الذي في داخله ابنها موسى في نهر النيل قالت لأخته: تتبّعي أثره، فسارت على مقربة منه حتى رأت آل فرعون يلتقطونه، ثم تتبعت أخباره فعلمت أنهم يطلبون له مرضعاً، وكانوا كلما قدّموا له مرضعاً يأنف الرضاع من ثديها، فقالت أخته لحاشية فرعون لمّا علمت ذلك: هل أدلّكم على من يربّيه ويرضعه؟ فوافقوا على ذلك، فجاءت بأمه، فكان أن التقط موسى ثديها بشغف ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ﴾ أي كان رجوعك إلى أمك كي تطيب نفسها وتسر بلقياك ولا

تحزن لفراقك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾ وقتلت يا موسى قبطيًا خطأ بلكمة منك له عندما كان يتشاجر مع إسرائيلي من شيعتك الذي استغاث بك فنجيناك من الغم والحزن الحاصل بذلك، وسهّلنا لك الفرار إلى مدين لتسلم من القصاص على يد فرعون ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ أي وابتليناك بلاء إثر بلاء، فأنقذناك منه مرة بعد أخرى ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فمكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ ثم جئت في وقت سبق في قضائي وقدري أن أكلمك فيه وأجعلك رسولاً مني إلى فرعون لهدايته ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ واخترتك لأن تكون رسولي تبلّغ عبادي ما أوحيه إليك من شريعة الدين.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ اذهب يا موسى أنت وأخوك هارون إلى فرعون بالحجج والمعجزات التي أيدتك بها التي تشهد بأنك رسول من عندنا ﴿ولا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ ولا تقصّرا في تبليغ رسالتي إلى فرعون.

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

شرح المفردات

طغى: جاوز الحد في الكفر والشر.
قولاً ليناً: قولاً لا خشونة فيه ولا غلظة.
يتذكّر: يتعظ فيذعن للحق ويؤمن بالله.
يخشى: يخاف عقاب الله وعذابه.
يفرط: يعجل ويبادرنا بالعقوبة.

إنني معكما: حافظكما وناصركما.
جئناك بآية: جئناك بمعجزة تشهد أننا رسولان من عند الله.
والسلام على من اتبع الهدى: والسلامة من العذاب الإلهي لمن سار على درب هدى الله.
تولّى: أعرض عن هدى الله.

وصية الله لموسى وهارون

ثم أمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون لتبليغه رسالة ربه إليه:

﴿اذْهبا إلَى فِرْعَوْنَ إنَّه طَغَى﴾ اذهبا إلى فرعون إنه قد تجاوز الحد في العصيان والمغالاة في الكفر حيث ادعى الألوهية، وجاوز الحد في الشر حيث سخّر بني إسرائيل في الأعمال الشاقة وقتّل أبناءهم.

﴿فَقُولا لَـهُ قَوْلاً لَـيِّناً﴾ أي كلّماه بكلام رقيق لا خشونة فيه ولا عنف، وبالترغيب قبل الترهيب. هذا ما أمر الله به موسى وهارون بوعظ أعتى رجل على وجه الأرض، وهو درس للوعّاظ والمصلحين بأن يستعملوا أسلوب اللين في وعظ الظالمين فهو أشد فعالية وتأثيراً في نفوسهم، وفي هذا المقام نذكر ما قاله بعض المتصوفة في ذلك: يا رب هذا رفقك بمن عاداك فكيف رفقك بمن والاك؟ ﴿لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى﴾ أي لعلَّه بهذا الكلام الليّن يتذكر أن له إلّهاً، وأنه عبد من عبيده، أو لعلَّه يخشى عاقبة كفره وظلمه فيرتدع عما هو فيه.

﴿قَالاَ: ربَّنَا إنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أو أَن يَطْغَى﴾ أي قال موسى وهارون: ربنا إننا نخاف من فرعون إذا دعوناه أن لا يتسع صدره لسماعنا ويستولي عليه الغضب فيعجل بعقابنا ويبادر إلى البطش بنا.

﴿قَالَ: لا تخَافَا إنَّني مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأرَى﴾ فطمأنهما ربهما بقوله: لا تخافا من فرعون وجبروته إنني معكما بالرعاية والحفظ أسمع ما يجري بينكما من قول، وأرى ما يحصل منه، فلا أمكّنه من إيذائكما ﴿فَأْتِيَـاهُ فقولا: إنَّا رسُولا رَبِّـكَ﴾ فاذهبا إليه وقولا له: إن ربك أرسلنا إليك لندعوك إلى الإيمان به. وفي قولهما ﴿ربك﴾ إشارة

إلى أن الرب الحقيقي هو الله، وأن ادعاءه الألوهية لا معنى له ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيل ولا تُعَذِّبْهُم﴾ أي فأطلق سراح بني إسرائيل من الأسر والعبودية ليذهبوا معنا إلى أرض الميعاد «أي فلسطين» ولا تعذبهم باضطهادك لهم ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ قد جئناك بمعجزة وعلامة تدل على أن الله أرسلنا إليك حقًّا ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى﴾ والسلامة من سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة لمن اتبع هدى الله.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ وقولا لفرعون: إن الله أوحى إلينا بأن عذابه سيصيب من كذّب رسله وأعرض عن قبول الحق وما ندعو إليه من الإيمان بالله الواحد وطاعته.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

شرح المفردات

فما بال: ما هو حال.

القرون الأولى: الأمم السابقة.

لا يضل ربي: لا يخطىء ربي ولا يغيب عن علمه شيء.

مهداً: ممهدة مبسطة يسهل العيش عليها.

سلك لكم فيها سبلاً: أنفذ فيها طرقاً.

شتى: مختلفة الأنواع.

أنعامكم: الإبل والبقر والغنم والماعز.

لأولي النهي: لأصحاب العقول.

الحوار مع فرعون

امتثل موسى وهارون أمر ربهما وتوجها إلى فرعون، وبلّغاه ما أوصاهما الله به، عندئذ سألهما فرعون: ﴿قَالَ: فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ أضاف فرعون الرب إليهما ولم يضفه إلى نفسه لجحوده ربوبية الله للناس جميعاً. وخص فرعون موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة الإلّهية، فأجاب موسى: ﴿قَالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي ربنا الذي أعطى كل شيء من المخلوقات صورته وشكله الذي يطابق كماله، وناط به من الخواص والمنافع ما يليق به ويتميز به عن غيره، ثم هداهم الله إلى طرق الانتفاع والحفاظ على نوعهم وبقائهم بما أعطاهم من الحواس والغرائز.

ثم تابع فرعون حديثه: ﴿قَالَ: فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي فما شأن الأمم التي كانت قبلنا، فإنها لم تؤمن بمثل ما تدعو إليه، ولم تخلص العبادة لله، ولكنها عبدت الآلهة والأوثان، فأجاب موسى: ﴿قَالَ: عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ أي علم أحوال الأمم الماضية مكتوب عند الله في كتاب ويسمى اللوح المحفوظ ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي ولا يَنسَى﴾ لا يخطىء ربي في تدبيره لخلقه، وهو سبحانه منزه عن النسيان لا ينسى ما علمه منها، فعلمه محيط بكل شيء من الأشياء.

هنا ينتهي ما حكاه الله على لسان موسى. ثم يوجه الله خطابه للناس جميعاً مبيناً فضله عليهم: ﴿الذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ أي هو الله الذي جعل لكم الأرض ممهدة فبسطها بقدرته للاستقرار عليها ﴿وَسَلَكَ لَكُم فِيهَا سُبُلاً﴾ وشق لكم فيها طرقاً تسلكونها لقضاء حوائجكم، والطرق هي الشريان الحياتي لكافة الشعوب، فلو كانت الأرض في وضع يصعب شق الطرق عليها لما ازدهرت هذه الشعوب وعمرت بمئات الملايين من البشر وحصل تبادل المنافع بينها، وهذا من فضل الله على الناس ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ وأنزل الله لكم من السماء مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا به

أزواجاً ﴿مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ فأخرج الله بذلك المطر أصنافاً من النبات والثمار مختلفة الطعم والشكل والرائحة متعددة الفائدة، بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم. ثم عقّب الله على ذلك: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي كلوا أيها الناس مما أنبتت الأرض من الثمار والنباتات والحبوب وارعوا أنعامكم من نباتها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ أي إن في ما ذكر لدلالات وحججاً لأصحاب العقول السليمة يستدلّون بها على وجود الله ووحدانيته.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ومن تراب هذه الأرض خلق الله آدم وذريته، فإذا حللنا العناصر التي يتكون منها الإنسان نراها نفس العناصر التي تحتويها تربة الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وإلى الأرض مصيركم بعد مماتكم فتُدفنون فيها فتتحلل أجسادكم وتصيرون من جنس الأرض تراباً ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ومن قبوركم في الأرض نخرجكم يوم البعث أحياء بعد مماتكم مرة أخرى للحساب والمجازاة على أعمالكم.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أريناه آياتنا كلها: بصّرنا فرعون المعجزات التسع التي أيدنا بها موسى.

أبى: امتنع عن الإيمان بالله وطاعته.

لا نخلفه: لا نخلف هذا الوعد بل نفي به.

مكاناً سُوًى: مكاناً وسطاً تستوي مسافته بين الفريقين.

يوم الزينة: هو يوم عيد يتزينون فيه.

ضحى: وقت ارتفاع النهار وامتداده.

فتولى فرعون: أدبر وذهب.

كيده: الكيد هو الوسيلة التي يتذرع بها الكائد للوصول إلى غرضه وإلحاق الضرر بعدوه.

لا تفتروا على الله كذباً: لا تختلقوا الكذب على الله.

فيسحتكم بعذاب: فيستأصلكم بالإهلاك.

خاب: خسر.

فتنازعوا أمرهم: فتفاوضوا وتشاوروا في أمر موسى.

أسرّوا النجوى: أخفوا ما تحدثوا به وبالغوا في إخفائه.

بطريقتكم المثلى: بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب.

أفلح اليوم من استعلى: فاز اليوم من غلب.

عناد فرعون ولقاء موسى بالسحرة

ثم يذكر القرآن عناد فرعون ورفضه دعوة الحق على لسان موسى وهارون:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ أي ولقد وضع الله أمام أنظار فرعون المعجزات الدالة على نبوة موسى والحجج الدالة على وحدانية الله وربوبيته للكون ولكنه كذّب موسى وأبى أن يؤمن بالله واستمر على كفره وطغيانه.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ أي قال فرعون: أجئت يا موسى بسحرك لتوهم الناس أنك نبيّ يجب عليهم اتباعك ولتخرجنا من أرضنا مصر لتحلّ محلنا ويكون لك الملك فيها؟ وإنما قال ذلك القول ليحمل قومه على

السخط على موسى بإظهار أن مراده ليس إنقاذ بني إسرائيل من العبودية والظلم، بل هو إخراج قوم فرعون من وطنهم، وحيازة أموالهم وأملاكهم.

وتابع فرعون قوله لموسى متحدياً إياه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ فلنأتينك: اللام هي الموطئة للقسم، أي قسماً لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ ولا أَنْتَ﴾ وحدّد لنا يوماً ومكاناً معلوماً لا يتخلف عنه أحد منا، ويكون ﴿مَكاناً سُوًى﴾ أي مكاناً وسطاً تستوي فيه المسافة بين من يجيء إليه من الطرفين المتبارزين.

حدّد موسى موعد الاجتماع والمبارزة: ﴿قَالَ: مَوْعِدُكُم يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ ويوم الزينة هو يوم عيد لهم يجتمع الناس فيه ويتزينون ويتفرغون فيه فلا يعملون﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك اليوم، والضحى هو حين تطلع الشمس فيغلب ضوؤها. وإنما عيّن موسى ذلك اليوم في الوقت الذي يحتشد الناس ويروا بأم أعينهم معجزة موسى ويشيع بين الناس ما رأوا.

وبعد الاتفاق على هذا الموعد ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ أي انصرف فرعون وشرع في جمع السحرة وأتى بهم مصحوبين بأدوات السحر في الموعد المتفق عليه.

أقبل فرعون في الموعد المحدد وجلس في مقصورته ومعه أشراف مملكته، وجاء موسى ومعه أخوه هارون حتى أتيا إلى المكان الذي تجمّع فيه السحرة: ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُم لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي قال موسى: الهلاك والعذاب من الله إن زعمتم أن المعجزة التي ستظهر على يديّ هي سحر كما ادعى فرعون ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ فيستأصلكم بعذاب فيهلككم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ وقد خسر وهلك من افترى على الله الكذب.

لمّا سمع السحرة تحذير موسى سرى الخوف في نفوسهم ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم

﴿بَيْنَهُم وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أي اختلفوا فيما بينهم وتشاوروا، وبالغوا في إخفاء الكلام بينهم.

﴿قالوا: إنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِما﴾ إن موسى وهارون ليسا إلا ساحرين يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بسحرهما ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المُثْلَى﴾ ويبطلا مذهبكم وعقيدتكم التي هي أفضل المذاهب والأديان.

ثم قال السحرة بعضهم لبعض: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُم ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا﴾ أي اجعلوا ما تكيدون به موسى أمراً موحداً متفقاً عليه ثم احضروا مصطفّين مجتمعين ليكون ذلك أنظم لأموركم وأشد لهيبتكم في نفوس المشاهدين ﴿وَقَدْ أفْلَح الْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ وقد فاز اليوم وظفر بالمراد من غلب وانتصر على خصمه، وأرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من المكافأة السخية والهدايا الوافرة إذا تغلبوا على موسى.

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

شرح المفردات

تسعى: تمشي وتسير.
فأوجس: أحس وشعر.
تلقف: تبتلع بسرعة.
كيد ساحر: حيلة ساحر.

إيمان السحرة

ثم يصف الله حال السحرة وقد استعدّوا للمبارزة مع موسى:

﴿قَالُوا يا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ من أَلْقَى﴾ لقد خيّروا موسى بين أن يبدأ بالمبارزة فيلقي ما عنده من سحر في زعمهم أو أن يكونوا هم أول البادئين بسحرهم ثقة منهم بالتغلب على موسى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أي قال لهم موسى بل ألقوا سحركم أولاً ﴿فَإِذَا حِبَالُهُم وَعِصِيُّهم يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِم أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أي فألقوا حبالهم وعصيهم فإذا هي من عظمة السحر قد خيّل لموسى ومن رآها من الناس أنها حيات حقيقية تتحرك زاحفة على بطونها ﴿فَأَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أي سرى الخوف في نفسه مما رأى حيث إن سحرهم من جنس معجزته وخشي أن يلتبس أمره على الناس فلا يصدقون أنه رسول الله.

وهنا أتى الوحي الإلّهي لموسى تثبيتاً لقلبه: ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ أي لا تَخْشَ يا موسى شيئاً مما رأيت، إنك أنت الغالب المنتصر على باطلهم ﴿وَأَلْقِ مَا في يمينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ وألق يا موسى عصاك التي في يمينك فتتحول إلى حية عظيمة تبتلع بسرعة حبالهم وعصيهم التي صنعوا بها السحر، والتعبير عنها ﴿بمَا صَنَعُوا﴾ للتحقير بما فعلوه من التمويه والتزوير ﴿إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ وما صنعوه من السحر ما هو إلاّ مكر وخداع ساحر ﴿ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ولا يظفر الساحر ولا ينال مراده حيث ما كان ومن أي مكان أقبل.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ في الكلام هنا حذف استغني عن ذكره بدلالة ما ذكر قبله، وفحواه أن موسى ألقى عصاه فابتلعت عصيهم وحبالهم فألقى السحرة جباههم على الأرض خضوعاً لله وتوبة عما صنعوا بعد أن تحققوا من أن موسى ليس بساحر، وأن ما أتى به ليس من صنعة السحر بل هو معجزة من الله قائلين ﴿قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ هارونَ وَمُوسَى﴾ يا للروعة والعجب! لقد ألقوا حبالهم وعصيهم من قبل تأييداً

للكفر والجحود ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة شكراً لله وإيماناً به. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين!

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

شرح المفردات

كبيركم: زعيمكم ومعلّمكم.
فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف: قطع الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى.
لن نؤثرك: لن نختارك ونفضلك.
البينات: المعجزات الواضحات.
فطرنا: خلقنا وأوجدنا من العدم.
فاقض ما أنت قاضٍ: احكم بما تشاء.
إنما تقضي هذه الحياة الدنيا: إنما تصنع ما تهواه في هذه الحياة الدنيا.
الدرجات العلى: المنازل الرفيعة في الجنة.
تزكّى: تطهَّر من أدناس الكفر والذنوب.

اضطهاد فرعون للسحرة

ولمّا خاف فرعون أن يقتدي الناس بالسحرة في إيمانهم بالله مارس على السحرة سطوته وجبروته ﴿قَالَ: ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ هذا القول يظهر مدى

طغيان فرعون حيث حدد للناس دائرة معتقداتهم فليس لأحد منهم أن يؤمن بشيء إلاّ بإذنه، ثم أضاف فرعون قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إن موسى هو رئيسكم الذي علّمكم السحر، قال هذا مع علمه أن موسى لم يكن يعرفهم ولم يسبق له أن اجتمع بهم، ولكنه قال ذلك ليسفّه إيمان السحرة وليغطي فشله أمام قومه، ثم تابع قوله مهدداً السحرة: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيدِيَكُم وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ﴾ والقطع من خلاف هو: قطع اليد اليمنى والرِّجْلِ اليسرى، أو قطع اليد اليسرى والرِّجْل اليمنى، وهذا أشد أنواع التمثيل فظاعة إذ لا يستطيع الإنسان فيه أن ينتفع بأعضائه ويقوم بحوائجه ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُم في جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي لأعلقنكم على جذوع النخل بعد التمثيل بكم زيادة في إيلامكم، وإنما اختار جذوع النخل لخشونتها وأذاها على الجسم ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ وستعلمون هل أنا أشد عذاباً لكم وأدْوَمَ أم رب موسى.

وبعد هذا التهديد والوعيد أجاب السَّحَرَةُ فرعون: ﴿قَالوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالَّذي فَطَرَنَا﴾ أي لن نختارك ونفضلك على ما جاءنا من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعانا إليه موسى من عبادة الله وحده الذي خلقنا وأنشأنا من العدم ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ فاصنع ما أنت صانع بنا وما بدا لك ﴿إِنَّما تَقضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تقدر أن تعذبنا في هذه الحياة الدنيا الفانية، وسلطانك فيها دون الآخرة ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ إنَّا صدّقنا بالله ربنا الواحد ليغفر لنا ذنوبنا فيسترها علينا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وما أمرتنا أن نتعلمه من السحر قسراً ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ والله خير منك ثواباً إن أطعناه، وهو أبقى عذاباً إن عصيناه.

أمثولة من التضحيات الجسام وتحمل أقسى أنواع العذاب في سبيل العقيدة بالله يضعها القرآن أمام أنظارنا لنقتدي بها، ولنتقبل كل أنواع الاضطهاد الذي قد يصيبنا على أيدي الظالمين في سبيل الله.

وبعدما حكاه الله من قول السحرة أتبع ذلك ببيان مصير المؤمن والمجرم يوم القيامة: ﴿إِنَّه مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّم لا يَموتُ فِيهَا ولا يَحْيـيَ﴾ أي من مات على الكفر والمعاصي، ويلقى ربه مجرماً بكفره ومعاصيه، فجزاؤه جهنم لا يموت فيها فيستريح من العذاب ولا يحيا حياة طيبة يتمتع فيها بنعيم ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ ومن يلقَ ربه مصدّقاً به قد عمل بطاعته وما أمره به من الأعمال الصالحة وكفّ نفسه عما نهاه عنه ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى﴾ فأولئك لهم بإيمانهم وعملهم الصالح المنازل العالية الرفيعة، ومكان نزولهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدينَ فيها﴾ جنات استقرار واطمئنان تجري بين أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَـزَكّى﴾ وذلك النعيم هو ثواب من تطهر من الكفر والذنوب وعمل بطاعة ربه ولم يدنّس نفسه بالمعاصي.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

شرح المفردات

أَسْرِ بعبادي: سِرْ ليلاً ببني إسرائيل.

فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً: فاضرب يا موسى البحر بعصاك فيجعل الله فيه طريقاً يابساً لا ماء فيه.

لا تخاف دَرَكاً: لا تخاف أن يدركك فرعون بجنوده.

ولا تخشى: ولا تخف غرقاً.
فغشيهم من اليمّ ما غشيهم: فغطاهم وغمرهم ماء البحر فأغرقهم.
الطور: جبل في سيناء.
المن: ندى يشبه العسل في طعمه ينزل من السماء على ورق الشجر، وقيل هو صمغ حلو.
السلوى: طائر السماني.
لا تطغوا فيه: ولا تكفروا النعمة ولا يظلم فيه بعضكم بعضاً.

فضل الله على بني إسرائيل

بعد أن تمادى فرعون في طغيانه أمر الله موسى بأن يخرج ومن معه من المؤمنين من أرض مصر: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي أمر الله موسى عن طريق الوحي بأن يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلاً إلى فلسطين دون أن يشعر بهم أحد.

امتثل موسى أمر ربه وانطلق بقومه بني إسرائيل قاصداً فلسطين وانطلق فرعون وجنوده مقتفين أثرهم للقضاء عليهم فأدركهم عند ساحل البحر الأحمر، حينئذ أمر الله موسى قائلاً ﴿فَاضْرِبْ لهم طَرِيقاً في البحر يَبَساً﴾ أي اضرب بعصاك البحر ليصبح لهم فيه طريقاً يابساً لا ماء فيه يمرون عليه ليتابعوا سيرهم وينجوا من فرعون ﴿لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى﴾ أي لا تخاف يا موسى أن يدركك فرعون وجنوده، ولا تخشى غرقاً في البحر.

ضرب موسى بعصاه الحجر فانشق الماء وصار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل وانحسر الماء عن جانبيها كالجبل العالي، فسار بنو إسرائيل في هذه الطرق في البحر ﴿فَأَتْبَعَهُم فِرعونُ بجنودِهِ﴾ أي ولمّا رأى فرعون وجنوده هذه الطرق في البحر التي اجتازها بنو إسرائيل ساروا فيها ليلحقوا بهم، ولمّا أصبحوا في عرض البحر كان بنو إسرائيل قد اجتازوا البحر إلى اليابسة عندئذ أطبق الله البحر على فرعون وجنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُم﴾ أي غمرهم وعلاهم من البحر ما

أغرقهم جميعاً ﴿وَأَضَلَّ فِرعونُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ وأضل فرعون قومه عن سبيل الرشد وما هداهم إلى خير.

وبعد هلاك فرعون خاطب الله بني إسرائيل مبيناً فضله عليهم بعد أن استنقذهم من الاضطهاد والعذاب: ﴿يا بني إسْرائيلَ قَدْ أَنْجيناكم مِنْ عَدُوِّكُم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل نعمة الله عليكم بأن أنجاكم من عدوكم فرعون وجنوده ﴿وَوَاعَدْناكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ أي وعدناكم بواسطة نبيكم، والموعودون هم النقباء السبعون الذين اختارهم موسى لسماع مخاطبة الله له ونزول التوراة عليه وكان الجبل عن يمين موسى إذ أتاه لمناجاة الله ﴿وَنَزَّلْـنَا عَلَيْـكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وكفل الله أرزاقهم في صحراء التيه حيث أنزل عليهم المنّ، وهو ندى يشبه العسل جامد ينزل من السماء، وقيل هو صمغ حلو، وأما السلوى فهو طائر السماني ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي كلوا من هذه الطيبات التي رزقناكم إياها دون جهد منكم ﴿ولا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ طغى: جاوز الحد في الكفر والمعصية، أي لا تتجاوزوا الحد فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي على حدود الله فيه بالإسراف والبطر والاستعانة به على معاصي الله، ومنع الحقوق الواجبة فيه للغير، أو بأن تأخذوه من صاحبه بغير حق. وهذا تحذير يسري على الناس في كل زمان، وبالأخص للذين يسرفون في المآكل والمآدب بحيث يفيض الكثير منها عن حاجاتهم ويكون طريقها إلى القمامة، كل ذلك على حساب الفقير المعوز وثروة البلد القومية ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْـكُم غَضَبي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبي فَقَدْ هَوَى﴾ فينزل عليكم غضبي إذا عصيتموني ومن ينزل عليه غضبي فقد هلك وشقي ﴿وإنِّي لغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وَعمِلَ صَالحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ وإني لعظيم الغفران لمن رجع عن كفره وندم على معاصيه وحسن إيمانه وعمل صالح الأعمال ثم استقام على هداي.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

شرح المفردات

وما أعجلك عن قومك: وما سبب عجلتك في المجيء إلى جبل الطور متقدماً قومك.

على أثري: بالقرب مني ينتظرون عودتي إليهم.

فتنّا قومك: اختبرناهم وابتليناهم بعبادة العجل.

أسِفاً: شديد الحزن.

وعداً حسناً: إعطاؤهم التوراة.

العهد: أي وقت الإنجاز ومدة مفارقتي لكم.

ما أخلفنا موعدك بملكنا: ما أخلفنا الوعد بقدرتنا واختيارنا.

أوزاراً: أثقالاً أو آثاماً.

فقذفناها: فطرحناها في النار.

جسداً: جسماً جامداً لا حركة له.

فنسي: أي غفل عنه موسى وذهب يطلبه في جبل الطور.

لا يرجع إليهم قولاً: لا يكلمهم.

فتنتم به: وقعتم في الضلال وابتليتم به.
لن نبرح: لن نزال.
عاكفين: مقيمين على عبادة العجل.

فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل

لمّا أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب الذي فيه الشريعة ليعمل بها بنو إسرائيل، فأمره سبحانه أن يوافيه في جبل الطور في موعد حدده له، وأمره بصيام ثلاثين يوماً زيدت بعدها عشرة أيام يعطيه التوراة عند تمامها.

انطلق موسى لملاقاة ربه في الموعد الذي حدّده الله له وبصحبته سبعون رجلاً من وجوه القوم من بني إسرائيل، وأخبر الباقين أن غيبته لن تطول أكثر من شهر، واستخلف عليهم أخاه هارون. ولمّا وصل موسى إلى جبل الطور أمر من معه من النقباء السبعين أن ينتظروه أسفل الجبل ثم صعد موسى إلى الجبل، فكلمه ربه وسأله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ أي ما الذي حملك على العجلة حتى تركت قومك وخرجت من بينهم؟ هذا السؤال قد يكون المراد منه ـ والله أعلم ـ تعليم موسى أدب السفر وأن رئيس القوم لا ينبغي أن يعتزلهم أو يتميز عنهم، خصوصاً إذا كانوا ذاهبين إلى مقام كريم ﴿قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ قال موسى: هم بالقرب مني ولم يبعدوا عني وإن تقدّمي عليهم هو بخطى يسيرة، ثم أضاف قائلاً ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ وسارعت إليك يا رب لتزداد عني رضا بذلك، وشوقاً لمناجاتك.

ثم بين الله لموسى ما آل إليه قومه بعد فراقه إياهم وهم الذين تركهم في عهدة أخيه هارون ﴿قَالَ: فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي قد ابتلينا القوم الذين تركتهم مع هارون بعبادة العجل ـ إلاّ قليلاً منهم ـ حيث أطاعوا السامري فيما دعاهم إليه.

وبيان ذلك: أن موسى أخبر قومه الذين تركهم تحت إمرة هارون قبل الذهاب

إلى جبل الطور أن غيبته عنهم لن تطول أكثر من ثلاثين يوماً يتعبد فيها، ثم زيدت عشرة أيام أنزلت بعدها التوراة، قال تعالى: ﴿وواعَدْنَا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أربعين ليلة﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فلما طالت غيبة موسى عن قومه استبطأوه وقالوا: إن موسى أخلفنا وعده، عندئذ تحركت نزوة الشر في نفس رجل منهم اسمه السامريّ، وكان من عظمائهم من قبيلة تعرف بالسَّامرة اشتهرت بعبادة البقر، فدخل السامري في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر، وقد كانت عبادة العجل شائعة عند المصريين فكانت العجول إذا ماتت حنطوها ودفنوها في مقبرة خاصة في جهة سقارة تسمى (سرابيوم).

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ فعاد موسى من جبل الطور إلى قومه غضبان شديد الحزن بعد أن أخبره ربه بعبادة قومه للعجل ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، أي ألم يعدكم ربكم على لساني أن ينزل عليكم التوراة فتعملوا بما فيها فتحوزوا رضاء ربكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ فهل طال عليكم الزمان فنسيتم وعدكم إياي بالثبات على دينكم؟ ولكن لم يطل عهدي بمفارقتكم فكيف نسيتم ما وصيتكم به؟ ﴿أَمْ أردتُّم أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من الله فيعاقبكم لعبادتكم العجل ﴿فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي﴾ فنقضتم العهد بيني وبينكم بالتزام طاعة الله إلى حين الرجوع إليكم من جبل الطور.

بعد هذا الإنكار والتوبيخ من موسى لهم قالوا معتذرين: ﴿قَالُوا: مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي ما أخلفنا موعدك بقدرتنا واختيارنا ورغبتنا ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً[1] مِن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ ولكننا حَمَلْنَا حين خرجنا من مصر أثقالاً من حليّ

---

(١) الوزر: الحمل، ويأتي ذلك في الأحمال الثقيلة. ويطلق اللفظ على سبيل المجاز على ارتكاب الذنوب والآثام.

المصريين استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر وأوهمناهم أننا سنتزين بها في عيدنا وهي آثام في حوزتنا لأننا لم نردّها إليهم. فقال السامري: إن تأخر عودة موسى إليكم لشؤم حرمتها لأنه لا يحلّ لكم أخذها وهي ليست لكم، والرأي أن تقذفوا بها في النار التي أوقدتها لكم في حفرة فيرضى ربكم ويرجع موسى إليكم، فصدقناه وقذفنا الحليّ في ناره، وكذلك فعل السامري، فقذف ما معه من حليّ في النار. قال تعالى: ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيّ﴾.

وكان السامري قد خبأ في حفرة النار قالب عجل، أخرج لهم السامري من حليهم تمثالاً لعجل جامد لا حركة له وصاغه بطريقة هندسية خاصة تجعل الريح إذا دخلته تصدر منه أصواتاً في فمه كخوار البقر لتتم الخديعة به ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ ثم قال السامري وأتباعه لبني إسرائيل: ﴿فَقَالُوا: هَذَا إِلَهُكُم وإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي هذا العجل هو إلّهكم وإله موسى فاعبدوه ولكن موسى نسي أن يخبركم أن هذا إلهكم، أو نسي موسى ربه هنا وذهب يطلبه عند جبل الطور.

ثم وبخ الله الذين يعبدون العجل بقوله: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِم قَوْلاً﴾ أي أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلّههم وإلّه موسى لا يكلمهم وإن كلموه لا يجيبهم ﴿وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا ولا نَفْعاً﴾ ولا يقدر على ضر ولا نفع، فكيف من كانت هذه صفاته أن يكون إلّهاً يُعبد؟ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُم بِهِ﴾ أي ولقد قال هارون لعبدة العجل من قبل رجوع موسى إليهم: يا قوم إنما وقعتم في الفتنة وغواية السامري لكم وضللتم عن طريق الحق ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فاتَّبِعُوني وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ وإن ربكم الذي يُعبد هو الله المتصف بالرحمة والمنعم عليكم بنعمه فاتبعوني فيما أنصحكم به وامتثلوا أمري بالامتناع عن عبادة العجل ﴿قَالُوا: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أي قالوا: لا نقبل حجتك وسنظل باقين على عبادته حتى يعود إلينا موسى.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

شرح المفردات

لم ترقب: لم تحفظ ولم تراع.

فما خطبك: فما شأنك.

بصرت بما لم يبصروا: علمت بما لم يعلموا.

فنبذتها: فألقيتها وطرحتها.

سوّلت لي نفسي: زيّنت وحسّنت لي نفسي.

لا مساس: لا تقربني ولا تمسّني كناية عن عدم المخالطة.

ظلت: أصله ظللت فحذف اللام الأولى تخفيفاً، أي استمريت ودمت على فعله.

لننسفنّه في اليمّ: نذريه في البحر.

لوم هارون وتهديد السامري

وبعد أن بيّن موسى للذين عبدوا العجل سوء فعلهم خاطب أخاه هارون:

﴿قَالَ يا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُم ضَلُّوا. أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي ما منعك يا هارون إذ رأيتهم ضلّوا عن دين الله وعبدوا العجل من دون الله أن تلحق بي

بمن معك من المؤمنين الذين لم يُفتنوا بعبادة العجل، أخالفت أمري، وتركت وصيتي بنصحهم كما عهدت إليك؟

﴿قَالَ يا ابن أُمَّ لا تأخُذْ بِلِحْيتي ولا بِرَأْسِي﴾ في الكلام هنا حذف تُرِكَ ذِكْره بدلالة الكلام عليه وهو: ثم أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه، فقال هارون: لا تعاجلني بغضبك ولا تمسك بلحيتي يا ابن أمي، وهارون أخوه لأبيه وأمه، وإنما خاطبه بنَسَبِهِ إلى أمه استعطافاً له وترقيقاً لقلبه ولأن الأم هي عنوان الحنوّ والرحمة. ثم علّل هارون موقفه من قومه: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسرائيل وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي إني خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا، فتقول إني فرّقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم وتخلّف مع السامريّ آخرون، وربما أفضى ذلك إلى الاقتتال بينهم، وحينئذ تقول: لم تعمل بوصيتي لك فيهم بالإصلاح بينهم.

وبعد أن سمع موسى وجهة نظر أخيه ودفاعه عن نفسه توجه باللوم إلى السامري: ﴿قَال: فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي فما شأنك يا سامري وما دعاك إلى ما فعلته من دعوتك بني إسرائيل إلى عبادة العجل ﴿قال: بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُروا به﴾ أي عرفت ما لم يعرفه القوم ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها﴾ والرسول المراد به هنا هو موسى عليه السلام، وأثره: سنّته، أي أخذت بقية من سنّتك ودينك أيها الرسول فطرحتها وأهملتها ولم أعمل بها. وإنما أورد السامريّ اسم الرسول بلفظ الإخبار عن غائب من باب التعظيم له ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لي نَفْسِي﴾ وكذلك فعلتُ بما حدثتني به نفسي.

وبعد أن انتهى السامري من كلامه قال له موسى: ﴿قال: فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ في الحيَاةِ أن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ أي اخرج من جماعتنا وابعد عنا، وأمر موسى بني إسرائيل ألاّ يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. وإن الله عاقبه بأن يقول في حياته: (لا مساس) فكان يتألم من مس إنسان له ويطلب أن لا يمسه أحد.

ثم تابع موسى خطابه للسامري: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ وإن لك وعداً لعذابك في الآخرة وهو كائن لا محالة ﴿وانْظُر إلى إلَهِكَ الذي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ وانظر إلى إلهك الذي لازمت عبادته لنحرقنه بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ في اليَمِّ نَسْفاً﴾ ثم نفرّق أجزاءه ونذروها في البحر.

ثم توجه موسى إلى بني إسرائيل مخاطباً لهم: ﴿إنَّما إلَهُكُم اللَّهُ الَّذي لا إلَه إلاَّ هُوَ﴾ أي إن إلهكم المعبود بحق هو الله الذي لا تصلح العبادة لغيره ولا تنبغي أن تكون إلاّ له سبحانه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ عِلْماً﴾ أحاط علمه بكل شيء فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أنباء ما قد سبق: أخبار الأمم السابقة.

آتيناك من لدنّا ذكراً: أنزلنا عليك من عندنا قرآناً.

وزراً: إثماً عظيماً.

الصور: البوق.

زرقاً: زرق العيون أو عمياناً.

يتخافتون: يتهامسون.

إن لبثتم إلاّ عشراً: ما لبثتم في الدنيا إلاّ عشرة أيام.

أمثلهم طريقة: أعدلهم قولاً وأعقلهم.

مصير المعرضين عن هدى الله يوم القيامة

وبعد أن ذكر الله قصة موسى وما رافقها من أحداث خاطب الله رسوله محمداً بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد من أخبار موسى وفرعون وبني إسرائيل كذلك نخبرك من أنباء الأمم التي سبقتك ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ وقد أعطيناك يا محمد من عندنا كتاباً وهو هذا القرآن، فيه العظة وفيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي من تولّى عنه فلم يصدّق بأنه من عند الله رغم وضوح الأدلة على ذلك، أو لم يعمل بما فيه من الهدى فإنه يحمل يوم القيامة إثماً وعقوبة ثقيلة ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين على الدوام في العذاب جزاء ذنوبهم ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ وبئس ذلك الحمل الثقيل من الإثم حملاً لهم. فالوزر في اللغة: الحمل الثقيل ويأتي بمعنى الذنب، والذنوب تسمى أوزاراً لأنها أحمال تثقل مرتكبيها وتكون سبباً للعقاب في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي يوم القيامة هو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور النفخة الثانية فيبعث الناس من قبورهم أحياء ثم يساقون إلى أرض المحشر ليحاسبوا على أعمالهم ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي ويسوق الله المجرمين وهم الكفار والعصاة إلى جهنم عمياً أو شاخصة أبصارهم من شدة الخوف، أو زرق العيون من شدة العطش ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي يخفضون أصواتهم ويتسارّون فيما بينهم فيقول بعضهم لبعض: ما لبثنا في الحياة الدنيا إلاّ عشرة أيام بالمقارنة بأيام الآخرة الطويلة الأمد ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ والله أعلم بما يتسارّون فيما بينهم إذ يقول أرجحهم عقلاً وأوفاهم فهماً: ما لبثتم في الدنيا إلاّ يوماً واحداً، وهذا هو التقدير الصواب لِقِصَر الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة.

فهؤلاء المجرمون لمّا عاينوا شدائد الآخرة وما شاهدوا فيها من الرعب والهول، وما هم مقبلون عليه من الحساب والعقاب، تذكّروا أيام النعمة والسرور في الدنيا فوصفوها بأنها أيام معدودة، وهذا الذي ذكره القرآن هو إيحاء للإنسان بأن لا يغترّ بنعيم الدنيا الزائل بل يتزود للآخرة بالعمل الصالح وطاعة الله.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

شرح المفردات

ينسفها ربي نسفاً: يقتلعها الله من جذورها ويفتتها ثم يبدد ذراتها.

يذرها: يتركها.

قاعاً: أرضاً ملساء لا نبات فيها ولا بناء.

صفصفاً: مستوية كأن أجزاءها على صف واحد.

أمتاً: ارتفاعاً.

خشعت: سكنت.

عنت الوجوه: ذلت وخضعت.

القيّوم: هو الله القائم بتدبير خلقه.

خاب: خسر.

هضماً: نقصاً من حسناته.

صرّفنا فيه من الوعيد: بيّنّا فيه الإنذار والتخويف.

ذكراً: عبرة.

من مظاهر القيامة

يسأل كفار قريش النبي محمداً ﷺ عما يفعل الله بالجبال يوم القيامة سؤال استهزاء لأنهم ينكرون القيامة، فينزل الوحي الإلهي ردًّا على سؤالهم: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً**﴾ أي يوم القيامة يقتلع الجبال من أصولها ويفرق أجزاءها من رمال وحجارة وحصى في الجو ﴿**فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً**﴾ أي يدع الأرض التي كانت عليها الجبال أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿**لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً**﴾ ولا ترى في الأرض مكاناً منخفضاً ولا مكاناً مرتفعاً ولا مَيْلاً عن الاستواء ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ**﴾ وفي هذا اليوم يتبع الناس صوت الداعي إلى موقف الحساب وهو الملك إسرافيل، فلا يقدرون أن يزيغوا عنه أو ينحرفوا بل يسرعون إليه ولا يحيدون عنه ﴿**وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرَّحْمٰنِ فلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً**﴾ وخضعت أصوات الخلائق وسكنت من مهابة الله جل جلاله فلا تسمع إلاّ أصواتاً خفيفة خافتة ﴿**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾ أي في ذلك اليوم لا تنفع شفاعة أحد إلا شفاعة من أذن له الرحمن ورضي قوله في الشفاعة.

﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ أي يعلم ما تقدم من أمورهم وأعمالهم في دنياهم ﴿**وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ ويعلم ما خلفهم من أمر الآخرة وما هم مقدمون عليه من ثواب وعقاب ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ ولا تحيط علومهم بذات الله ولا بتدبيره وحكمته.

﴿وَعَنَتِ الوجوهُ[1] للحيِّ القيُّومِ﴾ وخضعت وجوه الخلق وذلّت لله الحي الباقي الذي لا يموت القائم بتدبير خلقه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ وقد خسر من حمل شيئاً من الظلم من الشرك بالله والكفر به والعمل بمعصيته.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ومن يعمل من صالحات الأعمال وأداء فرائض الله التي فرضها على عباده وهو مصدق بوحدانية الله ﴿فلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾ فلا يخاف ظلماً بأن يزاد في سيئاته ولا هضماً بأن ينقص من حسناته.

﴿وَكَذَلِك أنـزَلْـنَـاه قُرْآناً عَربيّاً﴾ ومثل ذلك الإنزال لآيات القرآن التي فيها الوعد الحسن لأهل الإيمان والوعيد لأهل الكفر أنزلنا القرآن كله بلسان عربي فصيح ليفهمه العرب ﴿وَصَرَّفنَا فيه مِنَ الوعيدِ﴾ وبيّنا فيه أنواع الوعيد وكررناه تخويفاً وتهديداً ﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُون أو يُحْدِثُ لَهُم ذِكْراً﴾ لعلّهم يخافون الله فيجتنبوا معاصيه، أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة وعظة يعتبرون بها.

﴿فَتَعَالى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ أي تنزه وتقدس الله الملك الحق في ربوبيته وفي وعده ووعيده لخلقه ﴿ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ مِنْ قَبْلِ أن يُقْضَى إلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ولا تعجل يا محمد بالقرآن فتقرأه على الناس من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلماً﴾ هذا الدعاء الذي أمرنا الله به فيه بيان لمنزلة العلم وفضله، كما أن فيه الدعوة إلى التزود من العلم بفرعيه الديني والدنيوي، فالدين والعلم توأمان يكمل بعضهما بعضاً، والدين لا يتنافى مع العلم ولا يجافيه، لأن العلم يرقى بالإنسان، ورقيّ الإنسان من الأهداف الأساسية للدين. والعلماء أشد خشية من غيرهم لله سبحانه كما جاء في القرآن: ﴿إنّما يَخْشَى اللَّهَ من عِبَادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) الوجوه: المراد بالوجه الذات الإنسانية لأن الوجه أشرف الأعضاء الظاهرة للإنسان وآثار الذل أول ما تظهر على الوجوه.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

شرح المفردات

عهدنا إلى آدم: أمرناه ووصّيناه بأن لا يأكل من الشجرة.

عزماً: تصميماً في الرأي وثباتاً في الأمور.

أبى: توقف عن الامتثال لأمر الله ولم يسجد لآدم.

لا تعرى: أي لا تعرى من الملابس.

لا تظمأ: لا تعطش.

لا تضحَى: لا يصيبك حر الشمس.

شجرة الخلد: الشجرة التي يخلد من يأكل منها.

لا يبلى: لا يفنى ولا يزول.

سوآتهما: عوراتهما من القُبُل والدُّبر، وسمّي كل منهما سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه.

طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة: جعلا يلزقان على سوآتهما ورق الشجر لسترها.

فغوى: ضل عن سبيل الرشاد.

اجتباه: اصطفاه وقرّبه إليه.

قصة آدم وغواية الشيطان له

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن آدم وغواية الشيطان له ليبين من خلال ذلك أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ أي ولقد وصينا آدم قبل هذا الزمان وأمرناه ألاّ يخالف لنا أمراً فنسي العهد وخالف أمرنا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ولم نجد له تصميم رأي ولا ثبات قدم.

وهذا العهد الذي أوصى الله آدم بحفظه، هو أن له أن يأكل من ثمرات الجنة على اختلاف أنواعها ما يشاء باستثناء شجرة واحدة، عليه أن لا يقرب منها هو وزوجه حواء، وهذا ما ذكره الله في سورة الأعراف: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

هذا هو العهد بالنسبة إلى آدم، أما بالنسبة إلى سائر الناس فكل أمر أو نهي من الله يعتبر عهداً لا يجب أن يتخطاه الإنسان، وعليه الالتزام به.

﴿وَإذ قُلْنَا للملائِكَةِ اسْجُدوا لآدم﴾ أي واذكر يا محمد لقومك حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم ﴿فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ أبى﴾ فسجد الملائكة إلا إبليس امتنع ورفض مشاركة الملائكة في السجود ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي قلنا لآدم إن إبليس عدو لك ولزوجك فاحذراه ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي ولا تكن طاعتكما له سبباً لإخراجكما من الجنة ﴿فتشقى﴾ فتتعب يا آدم في حياتك الدنيا في تحصيل وسائل العيش. وإنما اقتصر الخطاب على آدم هنا لأن ابتداء الخطاب في الآية كان لآدم، ولأن في شقائه شقاء زوجته.

﴿إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوعَ فِيهَا ولا تَعْرَى﴾ إن لك في الجنة تمتعاً بأنواع المآكل الشهية

والملابس البهية، فلا تجوع فيها ولا تصبح عرياناً من الملابس. هنا قرن الله بين الجوع والعري لأن في الجوع ذل الباطن وألمه، وفي العري ذل الظاهر وبؤسه ﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى﴾ وأن لا يصيبك عطش في الجنة ولا يؤذيك حر الشمس بما نهيئه لك من المسكن الذي يؤويك. تأمل هاتين الآيتين كيف جمعتا أصول معايش الإنسان من طعام وشراب وملبس ومأوى.

ثم يبين الله وقوع آدم في حبائل الشيطان وانقياده لوساوسه:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ: يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ الوسوسة: هي الخاطرة الرديئة والهمس الخفيّ والإغراء بالمعصية، فالشيطان أغرى آدم وقال له: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت ونلت الملك الدائم الذي لا يزول أبداً؟ فدلّهما على الشجرة المحرّمة ﴿فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهمَا﴾ فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس وخالفا أمر ربهما، فانكشفت لهما عوراتهما وكانت مستورة عن أعينهما ﴿وَطَفِقَا يخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّة﴾ وأقبلا يغطيان سَوْءاتِهما بورق الجنة ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وخالف آدم أمر ربه، فغوى: أي جهل موضع رشده، وتأتي بمعنى خاب أو فسد عيشه.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّـهُ فَتَابَ عَلَيْـهِ وَهَدَى﴾ ثم اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوع عن المعصية إلى ما يرضى عنه بالعمل بطاعته، وهداه للتوبة فوفقه لها.

﴿قَالَ: اهْبِطَا مِنْهَا جَميعاً﴾ أي قال الله لآدم وحواء انزلا إلى الأرض معاً ﴿بَعْضُكُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ﴾ وستكون العداوة بين ذريتكما، وهذا مُشاهَد، فمنذ بدء الخليقة إلى الآن لا نزال نرى الصراعات بين الأمم والجماعات والأفراد، والعداوة متأصلة بين بني آدم بعضهم من بعض، إما بطغيان بعضهم لبعض، وإما بسبب الظلم والأطماع المتغلغلة في النفوس، وإما بسبب الحسد الذي ينهش قلوب الكثيرين

منهم ﴿فإمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى﴾ فإن يأتكم أيها الناس هدى من الله من جهة رُسُله إليكم ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ ولا يَشْقَى﴾ أي فمن تمسّك بشريعة الله فلا يضل في الدنيا في أودية الضلال، ولا يقع في المآثم، ولا يشقى بسببها في الدنيا والآخرة بعذاب الله. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: تضمّن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألاّ يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى﴾.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

شرح المفردات

معيشة ضنكاً: عيشاً ضيقاً.

أتتك آياتنا: أتتك دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا.

أسرف: انهمك في الشهوات واسترسل فيها.

أبقى: أدوم وأثبت.

أفلم يهد لهم: أفلم يتبين لهم.

كم أهلكنا قبلهم من القرون: كثرة ما أهلكنا من الأمم التي سلفت قبلهم.

لآيات لأولي النهى: لدلائل وعِبَر لأصحاب العقول.

لكان لزاماً: لكان العذاب ملازماً لهم.

أجل مسمى: وقت معين.

إنذار للمعرضين عن هدى الله

ثم يبين الله مآل المعرضين عن هدى الله:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ ومن خالف أمر الله وما أنزله على رسله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ فإن له معيشة ضيقة منغصة ذات شقاء فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أعمى﴾ ويجمعه الله مع من هم على شاكلته من الناس في موقف الحساب أعمى البصر وأعمى البصيرة عن وجهات الخير فلا يهتدي لشيء منها ﴿قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ أي قال هذا الذي أعرض عن هدى الله: لماذا جمعتني يا رب في موقف الحساب أعمى وقد كنت بصيراً في الدنيا، فيجاب: ﴿قَالَ: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَها﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت، أتتك آيات القرآن واضحة جليّة فتعاميت عنها ولم تنظر إليها بعين المعتبِر بل تركتها وأعرضت عنها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ أي ومثل ذلك فعلنا بك في الآخرة حيث بعثناك أعمى لتُترك منسيًّا في العذاب والهوان.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ومثل هذا الجزاء من المعيشة الضيقة المنغصة في الدنيا والعمى يوم الحشر في الآخرة نجزي كل من جاوز الحد فأسرف في المعاصي وانهمك في الشهوات ولم يصدّق بوحدانية الله وآيات القرآن ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وعذاب الآخرة أشد ألماً وأدوم مما كان في الدنيا لأنه ليس له نهاية.

ثم ينتقل القرآن إلى إنذار الكافرين ودعوتهم إلى الاعتبار بما حل بمن قبلهم من الأمم من هلاك جزاء كفرهم:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ القُرونِ﴾ أي أفلم يتبين لقومك يا محمد كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم كقوم عاد وثمود ولوط ﴿يَمْشُونَ في مَسَاكِنِهِم﴾

يمرّون بمساكنهم ويرون آثار الدمار والخراب الذي أصاب تلك الأمم من جراء كفرها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهى﴾ إن في ما يرون من آثار الدمار لهذه الأمم المكذبة لرسل الله لدلالات وعبراً لأصحاب العقول الراجحة.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَت مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي ولولا حُكْمٌ سبق من ربك يا محمد بتأخير العذاب عن المكذبين لك من قومك إلى وقت هو يوم القيامة، لكان العذاب أثبت وأدوم لهم في الدنيا لا يفارقهم كما لازم كفار الأمم الماضية.

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

شرح المفردات

آناء الليل: ساعات الليل.

أزواجاً منهم: أصنافاً منهم.

زهرة الحياة الدنيا: زينتها وبهجتها.

لنفتنهم: لنبتليهم ونختبرهم.

والعاقبة للتقوى: والعاقبة المحمودة للذين يتقون الله باجتناب المعاصي.

بآية من ربه: بمعجزة من ربه.

الصحف الأولى: التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية.

نذل ونخزى: نذل بالعذاب ونفتضح على رؤوس الأشهاد.

متربص: منتظر لما يؤول إليه الأمر.

الصراط السوي: الطريق المستقيم.

الأمر بالصلاة وبيان أن القرآن معجزة من الله

ثم يدعو الله رسوله محمداً إلى الصبر على ما يلاقيه من الأذى: ﴿فاصْبِرْ عَلَى ما يقولُونَ﴾ فاصبر يا محمد على ما يقوله هؤلاء المكذبون لك من قومك من أنك ساحر، أو مجنون، أو شاعر، ونحو ذلك من الأقوال التي يصفونك بها ظلماً ﴿وَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ والتسبيح يأتي بمعنى تنزيه الله تعالى عن السوء أو الشريك أو الزوجة أو الولد، والمعنى: نزه ربك عن الشريك وسائر ما يصفون الله جل جلاله به من النقائص حامداً له على ما خصّك به من الهدى؛ ومن الصيغ التي وردت عن النبي في تسبيح الله «سبحان الله وبحمده».

ويأتي التسبيح بمعنى الصلاة، وهو المراد به هنا، والمعنى: صلِّ لله وأنت حامد له على هدايته وتوفيقه في الأوقات التالية: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ أي صلِّ صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وهي صلاة العصر ﴿وَمِنْ آناءِ الليل فَسَبِّحْ﴾ ومن ساعات الليل صلِّ، والمراد بذلك صلاة العشاء وصلاة التهجد وقيل: صلاة المغرب أيضاً ﴿وأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أي صلاة الظهر والمغرب لأن وقت صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأول، والمغرب في آخر الطرف الثاني من النهار ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ رجاء أن تنال عند الله من الثواب ما ترضى به نفسك ويُسَرُّ به قلبك.

والصلاة أعظم دواء لإزالة الهموم والأحزان، ولذا كان النبي ﷺ إذا حزبه[١] أمر فزع[٢] إلى الصلاة.

﴿ولا تَمُدَّنَّ عَينيكَ إلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزواجاً مِنْهُم﴾ أي لا ترسل نظر عينيك بطريق الرغبة والميل والاستحسان والتمني إلى ما يتمتع به أصناف من الكافرين من ملذات الحياة الدنيا وشهواتها من الملابس والقصور والمراكب الفخمة والمآكل الشهية، وهذه هي: ﴿زَهْرَةَ الحَياةِ الدُّنْيَا﴾ لأن هذا المتاع زينة الحياة الدنيا وبهجتها. شبّه القرآن نعم الدنيا بزهر النبات، والزهر له منظر حسن لكنه ما يلبث أن يذبل ويضمحلّ، وهكذا فإن متع الحياة الدنيا لا تدوم ﴿لِنَفْتِنَهُم فيه﴾ ليمتحنهم الله بهذه النعم ويختبرهم بها ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيرٌ وَأَبْقَى﴾ وثواب الله وما ادخره للصالحين من عباده في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا، وهو لا ينقطع، بينما نعيم الدنيا زائل لا يدوم.

ففي هذه الآية نهي عن الافتتان بمتع الدنيا وزينتها والرغبة فيها بحيث يلهي ذلك عن عبادة الله وتكون الشاغل للإنسان، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، لأن النبي كان أزهد الناس وأبعدهم عن التطلع لشهوات الدنيا.

وقد يكون ما يرفل به الكفار من النعيم هو نوع من العذاب لهم في الدنيا كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

﴿وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وأمر يا محمد أهل بيتك بالصلاة، واصبر وداوم على القيام بها والدعوة لها ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقك﴾ لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك فنحن متكفلون برزقك ﴿وَالعَاقِبَةُ للتَّقْوَى﴾ والعاقبة

---

(١) حزبه أمر: اشتد عليه.

(٢) فزع: لجأ.

المحمودة في الدنيا والآخرة مكفولة لأهل الصلاح والتقوى.

وليس معنى هذا ترك السعي والعمل لطلب الرزق، ولقد قال الله في موضع آخر من القرآن في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ...﴾ [النور: ٣٧].

وفي ختام هذه السورة يردّ القرآن على بعض ما يطلبه الكفار من النبي ﷺ: ﴿وقالوا لولا يَـأْتِينَا بآيَةٍ مِنْ ربه﴾ وقال المشركون: هلاّ يأتينا محمد بمعجزة من ربه إن كان صادقاً أنه رسول من عند الله؟ ﴿أوَلَمْ تَـأْتِهِم بيِّـنَةُ ما في الصُّحُف الأولى﴾ أي ألم يأتهم محمد بالقرآن المشتمل على ما في الكتب الإلّهية السابقة من أنباء الأمم الماضية وقصص الأنبياء مع أقوامهم؟ وهذه معجزة واضحة لأنه لم يتصل برجال الدين في عصره ولم يشتغل بدراسة الكتب السماوية، فقد كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

﴿وَلَوْ أنَّا أهلكنَاهُم بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ ولو أهلك الله هؤلاء الكافرين قبل أن يرسل الله إليهم رسولاً ﴿لقالوا رَبَّنَا لَوْلا أرْسَلْتَ إلينا رسُولاً﴾ لقالوا يوم القيامة: يا ربنا هلاّ كنت ارسلت إلينا رسولاً في الدنيا ﴿فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أن نَذِلَّ ونَخْزَى﴾: فنتبع الآيات التي تنزلها على رسولك من قبل أن نذل بالعذاب الدنيوي ونفتضح بدخول النار في الآخرة ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكافرين: كل واحد منا ومنكم منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي فترقبوا وانتظروا، وهذا تهديد لهم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ فستعلمون عن قريب من هو على الطريق المستقيم والدين الحق أنحن أم أنتم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وستعلمون من هو المهتدي بهدى الله ومن هو الضال.

هذه السورة نزلت بمكة في بدء الإسلام حيث كان الكفار يضطهدون المسلمين، فيها البشرى للمؤمنين بالنصر وفيها التهديد للكفار، ولم تمض بضع سنين حتى انتشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية واندحر الكفر وصدق الله وعده.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي
تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي
تفسير البيضاوي
تفسير القرآن العظيم لابن كثير
التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي
تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي
تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي
تفسير الكشاف للزمخشري
التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي
تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي
تفسير القرآن لمحمود حمزه وحسن علوان ومحمد برانق
التعبير الفني في القرآن الكريم للدكتور بكري شيخ أمين
جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
حاشية الصاوي على تفسير الجلالين
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي
زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج الجوزي
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف
صفوة التفاسير للأستاذ محمد علي الصابوني
فتح القدير للشوكاني
القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف للشيخ محمد المدني
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـــ مصر
المفردات في غريب القرآن للأصفهاني
المعجزة الكبرى: القرآن الكريم للعلامة الشيخ محمد أبو زهرة
من روائع القرآن الكريم للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الفهرس

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

كلمة شكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب دار العلم للملايين الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى ـ فضيلة الشيخ محمد شريف خليل سكر

والدكتوره هدى سنو

والأستاذ شفيق اللبان

لما قدموه لي من معونة وملاحظات قيّمة

وإلى جامعة بيروت العربية لما قدّمته لي مكتبة كلية الآداب فيها

من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه

وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم

المؤلف

تنضيد الأحرف والتركيب: المركز العربي للمطبوعات

هاتف: ٧٣٩٣٥٣ ـ ٧٤٣٢٥٦ ـ بيروت ـ لبنان

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في نظر الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية

روح الدين الإسلامي
باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن :

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طه

هَذَا التَفْسِيرُ

- يعرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه.
- يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع.
- يفسّر المجمل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى.

$ 4.00

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥